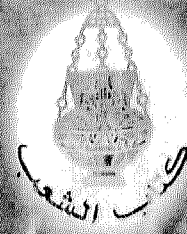


الحرية أيام الملكية



مؤسسة دار الشعب



عبد المنعم الجداوي





التراث والعلوم الإسلامية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة

دار الشعب

للصحافة والطباعة والنشر

■ رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير:

جلال عيسى

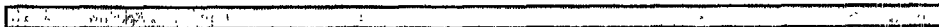


■ الإدارة : ٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة .

■ قطاع النشر : ت : ٣٥٥١٥٩٩

■ الإدارة : ت : ٣٥٥١٨١٠ / ٣٥٥١٨١٨ / ٣٥٤٣٨٠٠ .

■ فاكس : ٣٥٤٤٨١١ ص . ب ١٤ رقم بريد ١١٥١٦ .





كتاب الشعب

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	962.02022
رقم التسجيل	٤٩٦٤

الحریم أيام المماليك

تأليف
عبد المنعم الجداوى

الإهداء ...

إلى كل نساء مصر ..

اللاتى وهبن حياتهن للبلد ..

دون شعاعات او مظاهرات ..

من « حتشبسوت » إلى « كليوباترا » إلى أصغر بنت بلد فى القاهرة عامة .. وفى
الدراسة « ، » والعطوف « ، » والجمالية « ، » وباب الشعرية « خاصة .. هاتيك
لنسوة هن بطلات هذا الكتاب ..

والأخيرات لهن على هذا القلم ديتان ، أولهما عام ، وثانيهما خاص .. أما العام
لهذا الكتاب ، ومن قبله روايتى « نساء من باب الشعرية » محاولات متواضعة
لسداده ..

والخاص أسأل الله أن يسدده عنى لهن . فهو وحده القادر على منح الجزاء
الأوفى ..!

عبد المنعم الجداوى

مقدمة ..

من فضلك !..

* إذا سمحت سيدى القارىء .. حبذا لو استمعت إلى لأقول لك كلمة هامة عن هذا الكتاب الذى بين يديك ..

قد لا يكون خير الكتب التى تعرضت لهذا الموضوع ، ولكن من المؤكد أنه غيرها .. فهو يسجل فترة تاريخية من حياة الشعب المصرى ، وهى بشهادة علماء التاريخ جميعا من أخصب الفترات التى عبرت حياتنا ، وتركت آثارها علينا سلبا ، وإيجابا كأفراد ، وجماعات !.. -

إنها ساعات تاريخية لها خصوصياتها ، ومكوناتها ، وخلفياتها ، وأشخاصها ، وامتازت بمواقعها التى دارت عليها ، فكانت الأماكن ، والساحات ، والحارات ، والأزقة ، والدهاليز ، الوعاء الذى استوعب الأحداث فى اتساق وانسجام ، وامتزاج يضم كل أبعاد الحدث ما عرفناه منها ، وما لم نعرف . يحتضن الموضوع الحدث . فيحتويه بحلوه ومره . يختزنه فى جوف جدرانه . فى ظلمته ، وأنواره . فى مآذنه الشاهقة ، ومشربياته الشامخة . فى انتظار من يعشق قراءة التاريخ المكتوب ، والمسموع ، والمرسوم ، والمهموس . بشفاة البوابات البازخة ، والأقواس الفارهة !..

وتلك ساعات من التاريخ عبرت « القاهرة » .. كان الخوف فيها هو الحاكم المطلق ، والرعب صاحب كل السلطات ، والقلق يعربد ، يخلع الأنفذة .. يصرع العدل ، ويخنق العدالة ، ويلقى بها على جانبي الطريق ..

و« القاهرة » مقهورة تحنى هامتها .. بالكاد تستر عورتها .. تنعى ما فات .. مذعورة من الواقع .. تذوب رعبا مما هو آت !..

والحریم .. المرأة المصرية التى أحيانا ما تكون بنت البلد ، وأحيانا جارية شربت من مياه النيل ، وأحيانا ثالثة من بنات الممالك ولدت ونشأت على إحدى ضفتي النهر المقدس النيل .. هذه الأنثى التى تميزت دون نساء العالمين . بالركة ، والعفة والخصوبة .. وكتب لها أن تلعب فى بعض الساعات الحاسمة ، الأدوار الأولى ، وأحيانا الأخيرة . تمارس ما

يليق بالزوجة الوفية التي تجدد نفسها . حائرة بين فارسين . أحدهما زوجها ، والثاني والدها . الذى يطلب رأس زوجها .. مأساة لا تقل حجما عن المأسى الإغريقية !!

وقد شهد « الجبرتي » المؤرخ العظيم . أن المرأة المصرية . آثرت دائما بلدها على شبابها ، وعمرها ، وافتدتها بالنفس ، والنفيس . راضية ، وأكثر من امرأة فرضت قامتها التى استطالت فوق هامات الكثير من الرجال ، وأخريات ذهبن ضحية الدفاع عن العفة ، والعفاف ، وحمى المرأة التى ضعفت ، وارتبطت مع عميل للغزاة . عادت إليها كرامتها ، واستردت اعتبارها ، ورفضت أن تغادر البلد معه لتلحق بركب الغزاة ، وفضلت أن تظل لتلقى جزاء ما ارتكبت . مفوضة أمرها إلى أهلها فى شجاعة ، واثقة من نبل وطنها . إن شاء عاقبها ، وإن شاء غفر لها !!

وأكثر من امرأة من حريم عصر المماليك . كانت على بصيرة نافذة . تملك من العقل . أضعاف ما تملك من أنوثة وجمال . وقفت بكل كيائها إلى جانب زوجها ، الأمير أو المملوك الحائر . الذى غم عليه من توالى الأحداث ، وتعدد الصراعات فتشير عليه بأن يظل مع الصواب ، والنخوة ، والشهامة ، حتى يكون عصيا على الإغراء . أقوى من كل المغريات التى تساومه على أخلاقياته . فى أحلك الساعات التاريخية .. ويستمتع الفارس إليها ، وينفذ ما تصر عليه . فيكسب نفسه ووطنه . مطهرا ، ومحررا . لا شوائب فى صدره ، ولا على أرض وطنه !!

هذه هى المرأة التى سوف تجدها فى صفحات هذا الكتاب . نبراساً يضئ أحلك ساعات التاريخ . ومازالت بعض أضوائها فى المواقع ، والمواضع التى استوعبت الأحداث ، وكل ما فعلنا بإخلاص شديد . هو أننا قرأنا بإمعان أشد . بعض الأحداث المحدودة . فى أماكن غير محدودة .. شملت القاهرة خاصة ، وأرض مصر عامة ، وكان للمرأة فيها الدور الأول ، والأخير !!

عبد المنعم الجداوى

القاهرة - العباسية فى ٢٦ مايو ١٩٩٨

الحريم أيام المعاليمة



الغزالة

الغزالة

عندما يسأم القلب العزف .. يحطم القيثارة ..!!
يخنق أبدع أنغامه .. يتركها مدفونة في الهواء ..!
فقد أدرك أنه كان يعزف لأصماء ..!

يسقط في إحباط يرفض تجاوزه .. لا عن عجز .. ولا عن قهر ..! معترًا بنبل
محاولاته .. حتى لا يذهب أسمى ما فيه بلا مقابل ..!

■ وألقت فاطمة هائم بنت رضوان بك كتبخدا .. نظرة على ما حولها حاولت أن
تكون شامخة .. لا يجب أن يرى الناس منها إلا قوتها .. سطوتها .. عزة ابنة رضوان
كتبخدا الأستاذ لمعات الممالك .. الذين كانوا يجرون خلف ، وحول حصانه إذا ركب في
احتفال .. أو ذهب به إلى القلعة .. إن ألف طعنة وطعنة وجهتها لها الأيام .. لكن لأبد
أن تصمد .. وصمدت طويلًا .. حتى أذهلت من حولها .. ليس من حقها أن تصمد
وتصمت فقط .. بل عليها أن تجعل من آلامها بسمات .. تذيب أحزانها في اللامبالاة ..
تشغل آلامها بالذكرى .. تخلطها بهوم أخرى .. تحتضن محنتها .. تدفعها عن
جبهتها .. حتى يظل جبينها موطن إشراق .. تخشى من نظرة إشفاق .. فقد تطوى
شماته مستترة ..!

وأرسلت آهة من الأعماق .. هبت جاريتها التي تجلس تحت الأريكة .. ووجهها إليها
قائلة .. سلمت من الآهات والأنين .. يازينة البنات والبنين ..! أرخت أهدابها الطويلة
على عينيها الواسعتين ، وتركت بصرها يتسلل إلى غزالة « محنطة » تقف في أقصى القاعة
التي تجلس فيها .. فوق قاعدة من الفضة .. وحملت في عيني « الغزالة » كأنها تراها
لأول مرة .. ليتها تستطيع أن تستعير هذه النظرة الميتة .. النظرة الساكنة .. التي ماتت
الأسئلة فيها على الحدقتين .. ورغم الموات التي هي فيه .. إلا أن البعث يرقد بارزا .. إلى
جانب الموت .. هي في حاجة إلى مثل هذه النظرة .. حتى لا تشي بها الأحزان التي
تشوى أعماقها ..!!

لقد شهدت هذه القاعة .. أحلى أيامها ، ولياليها . وها هي تشهد أحلكها وأقساها .. شهدت كتب كتابها على « على أغا » الذى عينه والدها « رضوان بك » فى وظيفة سنجق وامتلات يومها الدار بالأمرء والممالك .. كان والدها فى صدر الإمارة ، وحضر الحفل « على بك الكبير » ، « ومحمد بك أبو الذهب » ، ونثرت الدنانير الذهبية على الرؤوس .. وحضر تلاوة العقد الشيخ « السادات » ، والشيخ « عبد الباقي العفيفي » ، والشيخ « حسن الجداوى » مفتى المالكية ، وضافت الدار بالهدايا .. التى جاء بها الأمرء ، والممالك والتجار ، وكبار الفلاحين .. وحمل إليها تجار الصباغة .. طربوشا من رقائق الذهب ..!

وقبل أن يتم الزفاف بأيام وقعت الواقعة .. وصارت ذريعة الخلاف بين « على بك الكبير » ، « وأبو الذهب » وانقض هذا على ذاك ، وبطش الممالك ببعضهم البعض .. وفر « رضوان بك الكتخدا » والدها ، ومعه « على أغا » « سنجقه » إلى « بغداد » تاركا خلفه كل حريمه وأهله .. وحوصر القصر بجاويشية « أبو الذهب » وهموا بنهبه أسوة ببقية قصور الأمرء الفارين .. لكنها تصدت لهم ، وواجهت كبيرهم .. بأنه قد يدفع رأسه ثمنا لأى خطأ يرتكبه أحدهم .. فقد حصلت على الأمان من « محمد بك أبو الذهب » ، ولم تكن رأته أو تحدثت إليه .. إلا فى حفل عقد قرانها .. وتراجع كبير الجاويشية .. ظل يحرس القصر من موجات الفوضويين .. حتى أقبل الليل .. فلما دخل يستأذنها فى الانصراف .. أمرت لهم بالعشاء ، وكانت قد جهزته ، وأمرت له مع جنوده بعشرة أكياس من الدنانير .. فظل فى الحراسة حتى الصباح .. وحينما علم « أبو الذهب » بالقصة .. أعجب بذكائها وصدق على روايتها ..!

وشغلته هموم الحكم .. فقد خلا له الجو ، وأصبح صاحب الأمر كله ، وشيخ البلد الذى لاينازع .. فنسى القصة برمتها .. وكان قد برز من بين ممالكه « إسماعيل أغا » الذى راح يتتبع أعداء سيده ، ويوقع بهم واحداً بعد الآخر .. إلى أن انتهى به الأمر إلى أكبر منصب فى البلد بعد شيخها .. نودى به « كتخدا » وأصبح الوزير الذى يحرك كل العسكر من كل الأجناس ، وتدين له جاويشية البلد ، وقادة « اليكنجيرية » .

وفوجئ « محمد بك أبو الذهب » برسول قادم من « بغداد » من عندنا « رضوان الكتخدا » السابق ، وكيلا عن « على أغا » الذى فر معه .. يحمل عشرة آلاف دينار من الذهب ، وعدة قناطير من البن ، والسكر ، والأقمشة .. لكى يرسل إليه « فاطمة هاتم » .

هنا فقط تذكر « محمد أبو الذهب » القصة ، واسترجع فى خياله ذكاء ، وفطنة هذه الإنسانية التى لايجب أن تخرج من مصر .. فاجتمع بالمشايخ الذين حضروا عقدها ، وقال لهم إنه لايريد أن يرسل ابنة « مصر » إلى « بغداد » .. لأن هذا الزوج الذى تركها

وفر لا يليق بها .. ولا يستحقها .. ولو أنه جاء يطلبها بنفسه لما حجبتها عنه .. لكن أن يظل هناك ، ويرسل فى طلبها ، وهى على هذا الجمال ، والذكاء .. فإنه يرى أنه لا يستحقها .. وأفتى الشيخ مفتى المالكية .. بأنه من حق ولى الأمر أن يفسخ عقد النكاح لعدم التكافؤ .. وعاد الرسول إلى « بغداد » ليقول لمن أرسله .. إن « فاطمة هائم » طلقت منه .. !

وذهب إليها « محمد أبو الذهب » .. جاء إلى هذه القاعة وبرزت إليه من خلف التل (الدانتلا) الأبيض .. فلما أبلغها أنه فعل كذا وكذا من أجلها فما هو قولها ؟ .. قالت بهجنان ثابت .. لقد صدقت على قولى الذى قلته عنك .. وهو ضد مصلحتك .. أفلا أسدق على قولك فى ، وهو فى مصلحتى ؟ .. !

لو أن الرسول جاءنى .. ما قلت له غير هذا الذى قلته .. وإنى لأشكر لك اهتمامك بى ، وحرصك على كرامتى .. وإذا لم يرع الأمير الكرامات فمن يرهاها ؟ ..

« أبو الذهب » الذى فاق أستاذه « على بك الكبير » فى الدهاء .. والذى أخضع الجزء الأكبر من الشام ، وأرسل من جماجم أهل « عكا » سبعة جمال .. ارتج عليه وهو يستمع إلى ردها .. ولولا أن له أربع زوجات لتزوجها .. فهو لا يرضى لها أن تكون محظية أو من السراى .. وتمنى لو أنه استطاع أن يقول لها ذلك . غير أنه خشى أن يجرحها أو يחדش مشاعرها .. !

وفجأة وهو يبحث عن كلام يختم به حديثه .. تذكر أن وزيره « إسماعيل بك الصغير » ، وكتخذه غير متزوج .. فقال لها .. إنه يخطبها إذا قبلت « لإسماعيل بك الصغير كتخدا » مصر ، وتلميذه ، وله عنده منزلة الابن .. !

فقالت .. إنها تسأل الله أن يطيل عمر الأمير .. حتى تنتهى أيام خروجها من العقد القديم .. ثم هى بعدها واحدة من رعايا الأمير .. يرى فيها ما يراه .. !

لم يكن ذلك الذى يعتصر الأمير .. وأطبق على ملامحه .. ليخفى على ذكاء مثل ذكائها .. وكان بوسعها لو أرادت .. أن ترفع رموشها فترميه فى أعماقه .. ثم تسحبهما فإذا بدماء قلبه .. تسيل حتى تصبغ ملبسه .. فيجثو على ركبتيه .. يسألها أن تتزوجه هو .. لا تتزوج وزيره .. لكن لحظتها .. لن تكون « فاطمة هائم رضوان » التى عاشتها .. « فاطمة » التى رقصت القاهرة يوم عقد قرانها .. ولن تكون جديرة بأن تصدر أوامرها إلى كبير الباشجاويشية فيصدع به ، ويخالف أمر « أبو الذهب » .. إن فعلتها فما كانت تصبح جديرة بأن تكون ذاتها .. !

هى تعرف أنه لا يقف فى طريقه إلى أهدافه شيء .. لكنه نشأ مدلا .. أعطاه « على بك الكبير » كل شيء ، وأمره فى كل شيء .. دون ممالك مصر .. كان

لا يحمل فى جيبه إلا الذهب .. تجرى وراءه كل الدنيا ، ولا يجرى خلف شيء .. اعتاد أن تأتيه الدنيا طائعة .. فكيف يسعى هو إليها ، ويطلبها ..؟ أليس فى طلبها لوزيره زمزية .. يختفى خلفها .. حتى إذا رفضت .. فهى رفضت « إسماعيل بك » وإذا قبلت ... كان له معها شأن آخر ..!!

وهرع يخرج .. كأنه يهرب من خطر .. خطواته الثابتة لم تعد هى .. لو بقى يراها من خلف « التل » الأبيض .. وذلك القوام الرائع ، والتكوين البديع .. ولو أنها رفعت وجهها ، وعاجلته بنظرة من عينيها .. وزحفت عليه بشخصيتها الواقفة .. لسقطت مشيخة البلد .. التى كان لا يجرؤ على أن يحلم بها « رضوان بك » .. لعبة فى يد ابنته ..!! هنيئا لك يا « إسماعيل بك » .. همس بها لنفسه .. وعند باب القصر ، وهو بهم يركوب حصانه الذى أمسكه له الخدم .. كان يتكلم مع نفسه .. لو أنها أبدت نحونا عطفًا .. لأولينها حبنا .. أما نحن فلا يجب أن نبدأ ..!!

وظلت ساعات طويلة تفكر .. لكنها فى النهاية .. اقتنعت بما فعلت .. فهى عبيدة .. شامخة .. ترى أنها فوق الجميع .. « وأبو الذهب » له نفس الأخلاق .. لهذا لم يلتقيا .. من المؤكد أن وزيره يختلف عنه .. لو كان مثله ما استوزره .. لذلك تشعر أنها سوف تكون سعيدة .. مع الآخر .. لأن كلمتها سوف تكون العليا ..!!

وبدأت تصلها أخبار « إسماعيل بك » . إنه قررة عين « أبو الذهب » .. دموى .. قاتل .. مثله فى ذلك مثل بقية المماليك .. لكنه رائع الطلعة .. جميل التقاطيع .. باهى اللحية .. لبق الحديث .. كان يختاره « أبو الذهب » ليكون رسوله إلى الآخرين .. الذين يريد أن يستميلهم إليه .. واسع الحيلة .. داهية فى التفكير .. لو سارت الأمور فى مجراها الطبيعى .. لثولى مشيخة البلد .. بعد أستاذه .. إن لم يكن بالحيلة .. فبالقوة ..!!

وانتهت أيام العدة .. وكان « أبو الذهب » قد حدث « إسماعيل بك » عنها .. فجن جنونه ، وأرسل إليها .. فلم ترده ، وشهد الحفل « أبو الذهب » شيخ البلد ، وكان لها شرط واحد .. هو أن تظل فى قصر والدها فى « الأزبكية » .. وشهدت هذه القاعة أعظم فرح حضره شيخ البلد .. وظل « المشاعلية » يحملون الشعلات حول القصر .. حتى أذن الفجر .. ووزع على الفقراء مائة قنطار من الحنة ، وألف قنطار سكر ، وذبحت مئات المعجول ، وعاشت القاهرة ثلاثة أيام من ألف ليلة وليلة ..!!

وعلا ذكر « إسماعيل بك » ، وجرى اسمه على كل لسان .. وأحسنت « فاطمة هانم » أنها تشتري سعادتها بأيام التعاسة .. وليالى الخوف الطويلة .. التى عاشتها بعد فرار والدها .. وعملت على دعم مركز زوجها ، وتوطيد اسمه .. فقد كانت ذات نشاط ضخم بين زوجات الأمراء تهدى عظيم الهدايا فى المناسبات ، والأعياد .. وتكسو مئات

الفقراء إذا أقبل رمضان ، وتطعم الآلاف إذا جاء عيد الأضحى .. باسم « إسماعيل بك الصغير » كنتخدا مصر ..!

جعلت من أيامها معه ألحانا .. تعرفها من ذاتها لذاتها .. تنشده حبا صباح مساء .. لو أنه لم يكن أصم العواطف .. لتحول إلى شاعر .. رقيق الأحاسيس .. فريد الخيال .. يرى فى النجوم معزوفة ، ويرى فى الوردة عين الشمس .. لكنه تشغله أمور الحكم .. وتأخذه من نفسه محاذير المؤامرات .. يأكل كخنزير ، وينام كنور .. لا يلتفت إلى شذى الزهرة الفواح التى حبست نفسها فى القصر ..!

وشقت عينها دمة.. مضت وهى لاهية عنها .. فسقطت على يد الجارية .. ففزعت ألما للزهرة .. قالت فداك روحى سيدتى .. تبكين ..؟ أجفلت كأنها ضببطت فى عار .. صاحت فى لهفة .. عيني توجعنى فتدمع .. أنا لأبكي .. أنا لأبكي ..!

تركتها الجارية وانصرفت كانت تعرف أنها تأنف .. أن يرى الآخرون دموعها .. لكنها كانت تبكى .. وداخلها كان يبكى أضعاف خارجها ..!

فرغم أنه لم يمض على زواجها منه أكثر من عامين .. إلا أنه يفكر منذ أسابيع فى الزواج بزوجة أخيه الذى مات عنها .. وقد كانت قبل زواجها من شقيقه محظية لوالدها « رضوان بك » وعلمت أن « محمد بك أبو الذهب » حاول أن يثنى عن ذلك .. وقال له إن « جلسن هانم » قد ترفض .. لأنها لا تريد أن تؤذى ابنة سيدها .. وقد يضايق ذلك « فاطمة هانم » .. لكنه أصر على بلوغ أهدافه .. وذهب يخطبها فامتنعت لكنه حاصرها فوافقت .. فلما أقبل ينقل إلى « فاطمة هانم » الخبر .. تلقته ببرود كلفها كل أعصابها .. وقالت له .. تسألنى إن كان ذلك يغضبنى أم لا ؟.. !

يجب أن تعلم أننى تزوجتك صدقة عن نفسى ، وزكاة عن جمالى .. والمتصدق لا يندم .. اذهب فتزوج كما تريد .. بمن تريد .. لكن لا تدخل بها قصرى .. فقد كانت هنا « محظية » مكانها مع الجوارى ..!!

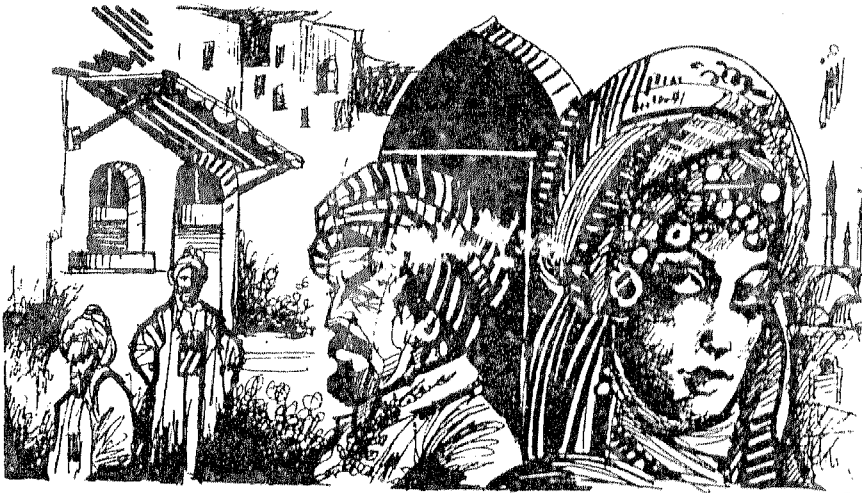
وأعلنت الحرب بينهما فى صمت .. هى لا تريد .. لأنها ترى أنه لا مبركة ، وأنه أتفه من أن يكون خصما .. تقتله باحتقارها له .. يكاد يجن .. تلقاه بازدراء يقض مضجعه ، وتشيعه باشمئزاز يربكه طول يومه .. فوجئت منذ يومين بجارتها .. تدخل عليها باكية .. وتطلب منها أن تحمى عنقها من القتل .. فلما حملقت فيها مذهولة .. أخرجت الجارية ورقة من صدرها .. بها مسحوق أبيض .. قالت إن سيدها « إسماعيل بك »

وعدها إن دست هذا لها فى الطعام .. أعتقها وزوجها بأحد الممالك .. لكنها
لاستطيع .. وإذا علم أن سيدتها عرفت .. فلا عقاب لها إلا الموت ..

أخذت السم من يد الجارية .. وقالت لها .. قولى له إنك أدت المهمة ، وطالبه
بالثمن .. وبعد أيام ماتت « فاطمة هانم رضوان » .. ولم يعرف أحد كيف ماتت ..
ولعلها أدركت آخر الأمر .. أنها تعزف لأصماء ، وأنست إلى الإحباط ترفض تجاوزه ..
معتزة بنبل محاولاتها .. حتى لا يذهب أسمى ما فيها بلا مقابل .. فالحياة فى نظرها لم تعد
جديرة بالنضال فى سبيلها !!..

★ ★ ★

الحريم أيام المماليك



ممنوع الحزن

ممنوع الحزن

منذ ثلاثة أيام يدور القتال .. القنوات امتلأت بالدماء .. والحقول هذا العام سوف تكون سنا بلها دامية ، وكروم العنب سوف تطرح حنظلًا ، وأحواض البطيخ ستكون ثمارها بعض جماجم الرجال .. وأنا مطحونة بين آلاف المشاعر .. فى النهاية لابد أن أصير إحدى امرأتين .. يتيمة قتل زوجها والدها .. أو أرملة قتل والدها زوجها ..! لابد أن يقع الضرر ، وليس لى أن أختار ..

وفى الحاليتين لا حق لى فى الحزن ، ودموعى يجب أن تكون بمقدار .. فقد يثير القاتل حزنى على القاتل .. فيظن أننى بعواطفى كنت أتمنى أن يكون هو المقتول ..!

زوجى « أيوب بك » حاكم « جرجا » المرسوم من قبل أستاذنا « على بك الكبير » ، وأبى « محمد بك أبو الدهب » .. تلميذ « على بك الكبير » .. الذى خرج على طاعته ، وجاء إلى الصعيد يتحصن به .. مع كثير من تلاميذه الذين التفوا من حوله .. حاكم « المنيا » ، وحاكم « أسيوط » ، وعرب « أسيوط » .. وحينما وصل إلى « جرجا » كانت رياح الخماسين قد سبقتة .. ألهمت بصفعاتها وجوه المزارعين ، ووصلت الأخبار عن اجتياح « والدى » للأراضى .. كما يجتاح النيل الأراضى .. فقط فى هذه المرة كان النيل قادما من الشمال إلى الجنوب !!

جاء زوجى يسألنى رأى .. العساكر التى كانت لديه ، والمئات من الكشاف .. هربوا إلى الجنوب ، وبعضهم مضى إلى الجبل الغربى يسلب ، وينهب .. فقد أدركوا أنهم لن يعودوا .. وفى قلبى تتمزج فرحتى بنصر والدى .. بشقوتى لورطة زوجى .. فالأمر يضيق علينا .. كل يوم يغلق من حولنا باب .. والإنكشارية الذين يسوقهم أبى أجلاف مجانيين .. لصبوص فى ملابس جنود .. يحطون كالجراد ، ويمضون كالشياطين .. وقلت له .. إنه صهرك وسيفه فى يده .. « وعلى بك الكبير » .. أستاذك وصاحب نعمتك .. لكنه فى « القاهرة » .. ثم لابد أن تتذكر .. أن « على بك » لم يكن يعرفك ، والذى جعله يولييك هذا المنصب .. هو « محمد أبو الدهب » .. فأنت مدين له بهذا .. ولم تصلك أوامر صريحة بشأنه .. فإذا قاومته .. فقد يهزمك ، ويخلعك .. و .. و .. فقد

دانت له الولايات من « بنى سويف » حتى « أسبوط » .. أرسل إليه بالأمان ، واخرج لتلقاه بالأمان ، وقل له إننى أريد أن أراه ، وأقيم له « السباط » .. وأنا على ثقة من أنه سوف يجيبك .. لا تجعل بينك وبينه رسولا .. التق به كصهر وزوج ابنته .. وإلا كفارس لفارس .. وها هي ملابسى السوداء ، على طرف الصيوان ..!

أبى أعرف سيفه جيدا ، وزوجى أعرف طبعه .. إنه فارس الفرسان .. لكن ليس أمام أبى .. فهو أستاذة الذى علمه ، وتعهدته حتى ثبت على ظهور الخيل .. ولم يكن ولاؤه « لعلى بك » إلا من خلال ولائه لوالدى .. وحينما تزوجنى أهدى لى « على بك » ما شاء الله من الذهب .. ووهب زوجى ولاية « جرجا » .. كان يمكن أصابعه بذلك من قلب أبى .. فقد كان تلميذه ، ووزيره ، وفتح الولايات باسمه ..

لكن الخلاف دب بينهما ، كان لابد أن يدب .. « على بك » ماكر ، وفارس ، وطموح .. لكن أبى فارس جسور ذكى .. أصر الأمير على خروجه على رأس حملة تأديب الشام فخرج .. قاد الحملة من نصر إلى نصر .. فلما خضعت المدن ، واستتب الأمن ، وقطعت أكثر من ستة عشر رأسا للعصاة .. أرسلت على جمل « لعلى بك » .. أرسل والدى يستأذن فى العودة .. فأرسل إليه برجوع البريد .. يطلب منه أن يسير إلى مدن جديدة ، وأن يفتح له بلادا أخرى ، وأن يبقى حيث هو مع رجاله ، لكن الحملة كانت قد استغرقت ستة شهور ، وضج القواد والمقدمون يريدون العودة إلى بيوتهم فى مصر .. وكان أبى قد وعدهم بذلك .. فرفض أن يمثل للأمر ، وأعلن فى الحملة أن تستعد للعودة !!.

لم يكن متمردا .. بقدر ما كان إنسانا - لم يتجاهل الشوق فى عيون الرجال - ولم يكن فى وسعه ، ولم يصم أذنيه عن تهديدات الزوجات والأمهات التى كانت تصدر من الرسائل ، ولم يكن فى وسعه .. أن يغلق فؤاده عن نداءات الأبناء والبنات ، وكان أبا ، وزوجا ، ولم يكن فى وسعه ، ورفض أن يلقي العدو وفى عنقه ذنب كل هؤلاء .. يدفع بهم وقودا لحرب يريدونها « على بك » .. هدفها الحقيقى إبعاد كل الأقوياء من حوله لينفرد بمشيخة البلد .. فلا يحدثه مخلوق فى شأن من الشؤون .. وأثر أن يغضب عليه « على بك » ، وأن يكسب فى كل الحملة رضا الله .. فعاد ..!

استقبلت المحروسة الحملة بالزينات التى لم يأمر بها « على بك » .. لكن بيوت المحاربين العائدين زينت ، ودقت الدفوف ، وأضيئت المشاعل ، واضطر « على بك » إلى استقبال الفاتحين .. متجاوزا عن العصيان .. صيانة لمهابته ، وفى الحفل أعلن أن المحاربين يقضون شهر رمضان الذى كان على الأبواب فى دورهم .. ثم يتجهزون للخروج مرة أخرى .. بنفس القواد ، والأمراء ، والنقباء .. وأظهر والدى الطاعة ، وأبدى

« على بك » القبول ، لكن كلاهما كان يسر أمرا في نفسه .. فكلاهما يفهم الآخر حين يصمت .. أكثر مما يفهم من كلامه .. انطوت القلوب على أحقاد أجنة .. مالبت أن تمت ، وريت .. فأدنى « على بك » منه أمير بطانته « على بك الطنطاوى » ، وأسر إليه أن يغلق أبواب الحراسة الليلة ، وأن يصدر أوامره المشددة بعدم خروج أو دخول أى مخلوق إلا بأمر منه .. وأن يجهز بعض الممالك ، والباشجاويشية لمحاصرة كبير من الكبراء .. والقبض عليه ، ونهب سرايته .. فإذا جهز كل ذلك فموعدهم قبل الاستعداد لصلاة الفجر .. يستأذن عليه .. وسوف يكون فى انتظاره .. ليقول من المقصود .. ويعطيه التعليمات الأخيرة !..

ولم يكن « الطنطاوى » غيبا ، ولكنه تغاى ، وخرج ينفذ الأوامر فى تكتم شديد .. لكن عيون أبى التى فى قصر الإمارة .. أرسلت إليه بالإنذار .. كان لأبى على كل عنق يد .. أركان قصر الإمارة .. كانوا تلاميذه .. فأسرع يجهز للهرب ، وعند الباب المؤدى إلى ناحية « البساتين » اعترضه الحراس ، ورفضوا أن يفتحوا الباب .. فنادى كبيرهم وهو على حصانه ، وصاح فيه أنه لابد أن يبلغ الأمير « على بك » رسالة خطيرة الآن .. فارتعد كبير الحراس ، وفتح البوابة ، وانطلق أبى إلى البساتين .. ثم إلى الصعيد فأنحاز إليه تلاميذه من حكام الأقاليم ، والعرب ، والهواره ، وجاء إلى جرجا !..

خرج زوجى « أيوب بك » ليلقاه .. لم يكن هناك مفر من لقائه .. وصعدت السطح أرقب مع بعض الجوارى ماذا سوف تأتى به الساعات .. لأول مرة أرى نجوم الليل لا تضىء .. كانت كمسامير دقت فى نعش أسود كبير .. والريح تعوى مولية كأنما تلهب ظهرها سياط الشياطين .. والقلق يحرق أعماقى ذهاباً فيزرعها حيرة .. فتنبت وأحصدها قبل أن يورب !!..

ومن الصباح الباكر .. مشى الطواوير تبهختر .. ودقت الطبول ، وسار الخيالة على عزف البروجى ، وجاءت موسيقى أنباء البلد ، ورقص فرسان العرب بالخيول .. وكان الاستقبال يليق بوالدى ، الأمير « محمد بك أبو الذهب » .. واستقبلت فى الحرم عشرات السيدات .. حملن الهدايا الثمينة بمناسبة وصول والدى .. وأقبل نحو الظهر تسبقه .. كوكبة من الفرسان ، والمشاة ، والموسيقى .. يتقدم الركب لاعب ماهر بالنقرزان ، وآخر يلحن بالدبوس فى الهواء ويتلقاه ببراعة ، وانطلقت الزغاريد من النسوة على طول الطريق !..

وبعد الغداء .. دخل على الحرم .. وملت أقبلى يده ، وكما توقعت أمسك رأسى بكفيه وقبلى بين عينى .. وملأت عينى من وجهه الجميل الفخم ، وألقيت بنفسى فى بحر عينيه الجسوريتين اللتين ترسلان مهابة ، وحبا ، وصلابة .. تخلع أقوى القلوب ..

واستبقى رأسى بين كفيه بعض الوقت فأحسست بالأمان .. لكن مكثت عليه كان قد أغلق عليها ..!

قلت له وأنا أبسم فى ارتباك .. أبى هب لى زوجى .. حدجنى بنظرة نعومتها على قدم المساواة مع شراستها ، وجسارتها ، وقهقهه قائلًا .. لا تخافى عليه ما دام لا يخون .. الخيانة هى التى تقتل صاحبها ..!! ثم قهقهه ثانية ، وأردف يقول .. هل أشرفت بنفسك على الطعام ..؟ ففزعت واستنكرت بعينى .. ثم ملت على يديه أقبلهما من جديد .. وأحزنتنى أن يسأل أب ابنته هذا السؤال .. لكنها المؤامرات ، وأبى قد قاسى منها كثيرا ، ومارسها أكثر ..!

بعد أيام دخل على « أيوب بك » .. يقبض على رسالة كأنه يمسك بجمرات .. قالت لى ملامحه أنه يعانى من أزمة حادة .. عرفت أن « على بك » أرسل إليه مع البريد رسالة يقول له فيها إن عليه أن يقبض على « أبوالدهب » بكافة الطرق .. ثم بعدها إما أن يرسله حيا مقيدا فى الحديد .. أو يرسل رأسه إذا تعذرت عليه الأولى ..

كتب أمره ودفع به إلى رجل البريد وحذره من أن يراه أحد .. وحاول أن يجارى « على بك » فيما يرمى إليه .. وطمأنه إلى أنه يترصد ، وينتظر الفرصة المواتية .. ولم يكن يعلم أن والدى قد بث عيونه على طريقته من أول « الحيلة » .. حتى مقره على مشارف « جرجا » . وأنه قرأ الرسالة القادمة من « على بك » قبل أن تصل إلى يده ..! وأنه كان ينتظر الرد ليقرأه أيضا ..! وظن زوجى أنه بعودة البريد انتهت أزمته ، وخرج منها بمشورتى ..!!

فى الليلة الثانية دعاه أبى لكى يسهر معه فى الخيام التى أقامها .. وجاءنى ليقول لى إنه سيركب فى رجاله إلى هناك .. اصطحب معه كبير عسكره ، وخازن داره ، وسنجه ، وحراسه المقرين ، وذهب إلى خيام « محمد بك أبوالدهب » .. وتحدثا فى أمور كثيرة .. وإذا به يفاجئ بسؤال غريب .. هل مازلت على عهدك الذى قطعت على نفسك يا أيوب بك ..؟ وذهل .. ثم نظر فإذا به لم يعد سواهما فى المجلس .. كل رجال « أبوالدهب » انسحبوا ، ورجاله أيضا لا يعرف أين ذهبوا .. كان الرجل الداهية .. قد أوكل رجاله برجاله .. الخازن دار بالخازن دار ، والسردار بالسردار ، وهكذا .. ضاع لعابه من فمه .. إلا أنه استمسك بأهداب الشجاعة ، وأجاب .. أنه مازال وسوف يظل على العهد .. وكان الرجل يتفرس فيه بالعينين الجسورتين الخيفتين .. ثم سأله سؤالا آخر .. وما جزاء من يخون العهد ؟ .. أجاب فى حماس ليغطى اضطرابه .. تقطع يمينه التى مس بها المصحف ، ويقطع لسانه الذى أقسم به .. فقال الرجل على الفور .. لقد حكمت على نفسك .. قبل أن تطرف عينه امتلأت الخيمة برجال أشداء انقضوا عليه ..!!

وكنت يقظة ، والحلم يغزو عيني .. يغلقها عن أى شىء دونه .. ورأيت عنق
« أيوب بك » الجميل ، والسيف يهوى عليه ، وسمعت صرخته .. حتى خيل إلى أنها
هزت مخدعي ، وسمعتها كل الجوارى .. فأطلقت صرخة مروعة ، وقمت واقفة ..
فوقفت الجوارى ، وهن .. يحطن بى ، وأقبلت جاريتى الخاصة مرييتى التى انتقلت إلى
بيت الزوجية معى .. سألتهن .. سمعتهن يجبنها .. بأننى كنت أجلس بينهن أستمع إلى
أحاديثهن ، وفجأة حدث ما حدث .. أخذتنى إلى حضنها .. قرأت فى أذنى
« الصمدية » . و « الفاتحة » .. وقلت لها ما أفزعنى فى كلمات متقطعة ، ظلت
بجانبي ، وراح الليل يتساقط لحظة بعد لحظة .. وطلع الفجر ، ولا خبر ، والغموض لا
يريد أن يترك الليل يمضى .. وفجأة امتلأ الجو ضجيجا ، وصعدت إلى الحرم قعقة
السيوف ، وطلقات رصاص ، وصرخات جوارى من الخادومات .. وحملنى قلقي ،
ودفعتنى حيرتى إلى الشرفة .. كان بعض رجال والدى يذهبون قصرى .. وتراجعت ويدي
على قلبى .. فقد خشيت أن يقفز من ضلوعي للصدمة ..!

جاء والدى يقدم لى العزاء .. قال .. لقد قتلته خيانتة ..! تلقي رسالة ولم يقل
لى ..! ألقيت بنفسى تحت قدميه .. كنت بلا وعى تماما .. والحزن فى ليلة واحدة دمر
نضارتي والصدمة أسقطت حرصى على احترام أبى .. تعلق بملابسه .. جذبته حتى
كدت أمزقها .. وأنا أصبح !

أنا التى رجوته أن يخبىء عنك خبرها لأنك لن تصدق أنه لن يخونك ..!!
وانكفأت أعض الوسائد .. فقد شاركت أبى فى قتل زوجى !!

الحرم أيام المماليك



امراة من الحسينية ..!

امراة من الحسينية

الأنفاس محبوسة والأفواه مغلقة ، والعيون زائغة ، والبصر يتعثر .. يسقط فى ضوضاء بصرية هنا .. وهناك .. خيول يركبها فرسان .. تشق السوق ، وتدوس الناس ، وتروع الأطفال ، والنساء ، والأبرياء يجرون بكل قوتهم ، والضعفاء يتساقطون تحت سنايك الخيول ، وغزاة يجردون التجار مما يملكون ، وحوائيت تقتحمها الجنود ، ونسوة يصرخن من خلف المشرييات .. فعيونهن تقع على رجالهن فى أيدى كلاب « أحمد أغا » المسعورة ، والسياط تعلو فرقعاتها على أصوات النحيب . وأفراد ينطلقون بكل قواهم .. تطولهم السياط .. فيسقطون ، ويتعثرون ، وهم يصرخون .. ودمائهم تتناثر فى الجو من أطراف السياط .. التى يزهو بها الجنود .

وهبت « الحسينية » التى أخذت على غرة .. لكنها مازالت تحت وطأة المفاجأة .. أغلقت الحوائيت التى لم يصلوا إليها .. أما التى دخلوها فلم يتركوا فيها ما تغلق عليه .. وحاول البعض الهرب إلى « باب الفتوح » لكن الجنود كانوا يحكمون الحصار .. وباءت المحاولات بالفشل ، وبآثار « الكراييج » على أجسادهم .. واتجهت ثلة من الجبهة إلى بيت « أحمد الجزار » شيخ « البيومية » ، ولم يكن الباب الكبير مغلقاً .. فلم يكن بيت شيخ « البيومية » يغلق ليلاً أو نهاراً .. فافتحموه ، وانطلقوا فى أنحائه ينهبون كل ما تقع عليه أيديهم ، وهم يجأرون فى طلب الشيخ .. الذى أيقن أنها النهاية .. فلم يشأ أن يتصدى لتلك العاصفة المجنونة .. ففر من باب خلفى ..!

بعض أهل « الحسينية » كان يدرك السبب ، والبعض كان لا يعرف على وجه التحديد .. فالغارة من جنود الكاشف على أى موسر .. لم تكن أبداً فى حاجة إلى سبب .. فكثيراً ما تكون للسلب والنهب فقط ، أما هو فكان يعرف ، وكان يتوقع هذه الغارة .. لكنها جاءت مبكرة ، وسريعة ، ومفاجئة ..! فبالأسف فقط .. أنقذ جندياً من أيدى أبناء « الحسينية » ، وفتواتها بعد أن أوشكوا أن يقتلوه .. فقد رأى الجندى أرملة كانت عائدة من مقابر « باب النصر » .. وسار خلفها ، وطلب منها فى عريية ضعيفة . مما يؤكد أنه أعجمى « فطيرة » من فطائر « المقابر » .. فلما توقفت وأعطته « الفطيرة » لمح جمالها . وقوامها المشوق ، فظل يطاردها حتى وصلت إلى بيتها فى حارة « البيرقدار » .. فلما زجرته ، ونهرته .. دخل فى قلبه أنها تتدلل .. فافتحم عليها البيت ، وحيث لم تجد مفرأ من الاستغاثة بصوت عال .. فتقدم هاجماً عليها يبغى كتم

صوتها جاعلاً يده على فمها ، وخرج عليه نساء الحارة ورجالها ، فأوسعوه ضرباً ، وأوثقوه فجعلوا يديه خلف ظهره ، وساقوه أمامهم إلى شيخ البيومية .. فقد خشوا قتله حتى لا تحرق بيوت الحى كله بسببه .. ولما مثل الجندى المتهم بالهجوم على الأرملة بين يديه .. فكر فى العقاب الذى يجب أن يوقعه عليه ، وأخيراً أمر بأن يجرد من حذائه ، ومن « طرطوره » الذى يرتديه على رأسه ، وأن توضع قدماه فى « الفلقة » ، ويضرب بالعصى حتى إذا ما ذهب إلى زملائه .. كان ذلك درساً لهم فلا يطارذ أحدهم امرأة من « الحسينية » .. وقد تمر هذه المسألة دون انتقام من الحى .. حفاظاً على هيبة الجنود التى هى جزء من هيبة الكاشف .. إذا ما كتم الجندى رغبته فى الانتقام ، وأخفى القصة كلها احتراماً لذاته ، وهو احتمال ضعيف .. لكن الأقوى ، والمتوقع أن رؤساء الجند ، والكاشف ينتقمون من الحى خلال الأيام الثلاثة القادمة !..

أما أن يقع ذلك فى صباح اليوم الثانى .. فذلك ما لم يكن فى حسابان الشيخ « أحمد الجزار » .. الذى استطاع أن يفلت من الحصار المضروب حول بيته ، وأن يقتحم شارع « الحسينية » .. فإذا بالناس فيه .. بين متوقع فى البيت يحوقل ويسمل ، وبين مدهول يرى حانوته ينهب ، وهو لا يدرى ماذا يفعل .. وصباح فيهم أن يتجمعوا ، وأن يحمل الرجال العصى ، والنبايت ، وأن تحمل النساء الأحجار ، وأغطية الأوعية النحاسية ، وأن ينصرف جماعة إلى دق الطبول بعنف حتى يعرف أبناء « باب الشعيرة » فيغلقوا حوانيتهم ، وينضموا إليهم .. وخلال دقائق معدودة .. كانت أوامر الشيخ تنفذ بدقة .. وفوجئ الجنود بقيامة أهل « الحسينية » تقوم ضدهم .. انهالت الأحجار عليهم من كل مكان وانشتت الأرض عن أطفال ونساء يلطمون الجنود بالأوعية النحاسية ، يقدفون وجوههم بالمياه المذابة فيها الشطة بكميات رهيبة ، وانهال عليهم الشباب ، والرجال بالعصى ، وعلت الطبول تصم الآذان ، ولم يسع الجنود ، وعلى رأسهم « أحمد أغا » إلا الهرب !..

لكن « أحمد الجزار » شيخ البيومية لم يتوقف ، وقاد حملة الطبول ، وحملة العصى ، والنبايت نحو « بيت القاضى » .. فأغلقت حوانيت الصاغة ، وانضم إليهم تجار الموسيقى ، وانجهوا إلى الجامع الأزهر .. فنادوا على المشايخ أن يوقفوا حلقات الدروس ، وأن يعطلوا كل شئ فى الأزهر .. وصعد حملة الطبول إلى المآذن ، وراحوا يدقون بالطبول .. فأغلقت الحوانيت التى لم تكن أغلقت !..

واجتمعوا حول الشيخ « العروسى » شيخ الأزهر ، وطالبوه بأن يذهب إلى « إسماعيل بك » ويطلب منه خلع « أحمد أغا » من الولاية .. فوعدهم أن يركب إلى « إسماعيل بك » إذا انصرفوا .. فأصبروا على أن يركب الآن وفوراً على أن يرافقه وفد

منهم على رأسه « أحمد الجزار » فإما أن يتغير ذلك الوالى « أحمد أغا » ، وإما أن يتحمل « إسماعيل بك » مسئولية ما يحدث ..!

ولم يجد الشيخ « العروسى » بدأ من الركوب معهم ، وساروا بقضيتهم ، وقضيتهم إلى قصر « إسماعيل بك » .. الذى اعتذر لهم بأن « الوالى أحمد أغا » ليس من جماعته ، وإنما هو من جماعة « حسن بك الجداوى » ، وهو الوحيد القادر على عزله ، وتولية غيره .. فالأمراء لا يتعدون على اختصاصات بعضهم البعض ، وكل له رجاله الذين يوليههم ويعزلهم ..!

وهرع الموكب كله لم يتخلف منه رجل إلى سراى « حسين بك الجداوى » فكان جوابه أنه لن يعزل واليه .. إلا إذا عزل « إسماعيل بك » واليه « رضوان كئخدا » وأصر كلاهما على وجهة نظره ، وخرج الموكب مغلوباً على أمره .. فالتقى بموكب للسلب والنهب كان يقوده « أحمد أغا » ، وكانت الأخبار قد وصلتته بأن أهل « الحسينية » يطالبون « بعزله » ..!

وتحفر الجمعان ، واشتبك الأفراد اشتباكاً غير متكافئ ، وغير منظم ، جنود على خيول ، وأهل « الحسينية » على أقدامهم ، ورغم ذلك فقد اندفعوا نحو الفرسان وحاصروهم فى « الدرب الأصفر » ، واستهدفوا طعن خيولهم بالسكاكين والسواطير ، والمزاريق ، واختلط الحابل بالنابل ، وحاول « أحمد أغا » الهرب فقفز من على حصانه ، وهو يسقط ، واندفع إلى « قصر قلاوون » فطارده ثلة من فتوات « الحسينية » فى أروقة القصر ودهاليزه .. حتى أمسكوا به .. فألقوه على الأرض ، وانهالوا عليه بالعصى ، والنباييت .. ثم قصوا شاربه ، وتركوه عاجزاً عن الحركة !

ثم أسرعوا إلى « الحسينية » فتحصنوا داخلها ، وبعدها بأيام علموا أن « الوالى أحمد أغا » طلب من « حسين بك الجداوى » أن يتخلى عن الولاية ، وأن يعين « صنجقا » على « باب اللوق » ، وانتصرت « الحسينية » لانهتها التى حاول الجندى الاعتداء عليها ..!!

* * *

الحرم أيام المماليك



وحوش بلا قيود

وحوش بلا قيود

ألقى الصمت بنفسه على صدر الكون ، لا رجوع ، لا همسة .. لا وجود ..
كأنما ألقى الكون فجأة لصالح العدم ، ! ولا قمر في السماء ، ولا منقار ، فالظلام
يغطي كل شيء ، حتى مآذن القلعة ، وكأنما الظلمة الجاثمة على القاهرة ، هي البخار
المتصاعد من الظلم الذي يعيش في كل أرجائها ، والحوارى صامته كأن السكان قضوا
نحبهم قهرا وكمدا ..!

قصر الأزبكية .. هو وحده الذى تضحك فوقه أنواره .. وتنغرس مشاعله في قلب
الليل .. تمزق عباءته السوداء بجروح ملتهبة .. « فالباشا محمد على » جاءه الليلة من
قصر شبرا .. يبيت فيه استعدادا لاستعراض الجنود وأمرائهم في الصباح ..!

إذ نادى في المعسكرات مناد .. أن كل العسكر الخطير منهم والحقير عليه أن يكون
في استقبال « الباشا » ، وأن يجتمعوا في أرض « ميدان الرميطة » ، وكل فرقة يتقدمها
رؤساؤها ..! لأن « الباشا » سيعيد تقسيمهم إلى فرق ، وجماعات كالجيوش الحديثة .

وهو في حاشيته ، يسمر معهم . ويستمتع إلى آرائهم .. لا يعمل بها .. ولكن لكي
يعرف كيف يفكر كل منهم .. فنصف ذكائه يتركز في أنه يعرف كيف يستدرج الناس ،
ويقرأ أفكارهم .. فيعرف ما يريد منهم حتى لو أنكروه ..!

واجتمع بعض رؤساء الجند حول وليمة كبرى أقامها لهم « عابدين بك » .. وهم
جميعا تحتشد صدورهم بالهواجس من هذا الحشد .. فقد كانت حجة « الباشا »
غامضة ، وغير محددة المعالم في نظرهم ، ولكنهم جميعا تباروا في التظاهر بأن الأمر
أبسط من عادى .. وجلس « حجوب بك » يعبث بأصابعه في شواربه ، و « عبد الله أغا »
صارى جلّه « يدخن الترجيله » وحسن أغا الأرزنجلى « يقلب سيفه ، وينظر بين الحين
والحين إلى زملائه ، بينهم « عابدين بك » دون أن يتكلم .. ولكن بخار الغليان في
صدورهم تسرب من ملامحهم ليملأ جو القاعة .. وتخلّى « حجوب بك » عن شواربه
ليقول .. إنه لا يطمئن إلى دعوة « الباشا » ، ويخشى أن يكون في الأمر خدعة ..!

ومرقت عبارته كالشهاب فى الجو ، وفتح « حسن أغا » فمه برهة .. ثم قال .. إن قلبه يحدثه أنهم سيصلون غدا فى الجنة .. فسوف يصيرهم « محمد على » شهداء .. وانحلت عقدة ألسنتهم فراحوا يثرثرون عن مخاوفهم .. ويقترح أحدهم أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ أعناقهم .. هى أن يسوقوا العسكر إلى قصره فى الأربكية .. فيحاصرونه ، ويتغدون به قبل أن يتعشى بهم ..!

وفى غمرة حماسهم للفكرة .. لا يفطنون إلى أن مضيفهم .. قد انسل من بينهم ، ومضى متنكرا إلى قصر الأربكية فوشى بهم عند « محمد على باشا » .. الذى أسرع يطلب جند « طاهر باشا » .. فهو لا يثق إلا بهم .. وعهد إليهم بحراسة القصر ، وصعد إلى « القلعة » مع حاشيته الخاصة عن طريق غير مألوف .. والليل لم ينتصف إلا منذ ساعة ..!!

وخرج أمراء الجند لينفذوا مؤامرتهم ، وخرج معهم « عابدين بك » إمعانا فى التضليل .. وساقوا جنودهم إلى قصر الأربكية .. وقبل أن يصلوا إلى الشوارع المؤدية إليه .. أطلق عليهم جنود « طاهر باشا » الرصاص ، وكانت مفاجأة حصدت منهم الكثير .. واشتدت المقاومة .. ثم عرفوا أن الباشا هرب إلى « القلعة » .. فاستداروا على أمل اللحاق به .. لكنهم وجدوا جموعهم فى ميدان « الرملة » تحت أسوار « القلعة » ، ورمادية الفجر الصافية تغزو الكون .. والجنود اقتعدوا الأرض .. يتكئون على بنادقهم ، وانتحى الأمراء ناجين بجيادهم .. ثم هبطوا من فوق ظهورها ، وراحوا يتدارسون موقفهم السيء ..!

بعد أن تشرق الشمس بساعة أو ساعتين .. يهبط « محمد على باشا » ، ويلقى القبض عليهم ، ولا تغيب شمس اليوم إلا ورقابهم على « باب زويلة » .. ولن يقف بجوارهم أحد .. بل يشمت فيهم كل الناس .. وقال أحدهم .. لا بد لنا أن نشعلها .. علينا وعلى « محمد على باشا » .. ليس لنا إلا أن نقلب إلى المدينة فنبيحها للجند .. فينهبوننا وننهبها معهم .. فيثور الشعب ضد « محمد على » باعتباره الوالى الشرعى الذى عليه أن يكفل لهم الأمن ..!

بهذا نمتص حماس استنفارهم ، والرغبة القتالية التى أيقظناها فيهم .. ويكسبون ، ونكسب معهم بعض الأموال ، وينشغل عنا إلى أن نتكشف الأمور ..!!

ونادوا على الجنود .. القاهرة اليوم مباحة لكم فخذوا ما تستطيعون ..!!

واندفعوا ناحية « الصليبة » إلى « السروجية » ، وحطموا الأقفال وانقضوا على الخوانيت يجرّدونها من كل ما فيها .. نقودا ، وبضاعة .. وانضم إليهم من المحرومين والجوعاء أضعاف عددهم .. وراحوا يحطمون القدور ، ويكسرون الخزانات ، وجرت على

الأرض أنهار العسل والمسلى ، وتبرقشت أرض السوق من « باب زويلة » ، إلى « المناخلية » بالسوائل والحلويات التى كان يعدها التجار لشهر رمضان .. الذى يحل بعد خمسة أيام فقط ..!!

وفى دقائق تحولت السوق إلى ساحة قتال .. أصوات الأبواب ، وهى تتحطم ، والخزانات ، وهى تكسر ، والذين يجرون بما خطفوه يصطدمون بالقادمين ليلحقوا نصيبهم .. أو ليدافعوا عن حوائيتهم ، واختلط أصحاب الحوائيت بالذين وفدوا للسلب ، وأصبح من المستحيل عزل هذا عن ذاك .. « ومضت الهوجة » من « الأشرية » إلى « الغورية » إلى « سوق الصاغة » والأخبار تسبقهم .. فيخطف الناس ما فى حوائيتهم ، ويغلقونها ، ومن لا يتمكن من الغلق يتركها مفتوحة .. يرقبها وهى تنهب بعينين حزينتين ، وقلب ينفطر .. ووصلوا إلى « مرجوش » فاستولوا على الحرير فى المخازن والوكالات وحملوا ما استطاعوا منه ، وتركوا الباقي ملقى على الأرض فى الشوارع .. تدوسه الأقدام الغليظة الحافية .. التى تتركه لتبحث عن الذهب .. فالكل كان يفكر فى الشيء الذى يمكنه أن يخفيه دون أن يفتضح أمره ..!!

واكتفى الفتوات بأن وقفوا على نواصى الحارات .. يجردون الضعاف مما سلبوه ، ومن لا يسلم ما معه يضرب حتى يفقد النطق .

استدعى « محمد على » شاه بندر التجار « السيد المحرقى » . طلب منه أن يعقد اجتماعا مع التجار المنكوبين ، وأن يعد كل منهم كشفا بخسائره .. لكى يعوضه « الباشا » عنها .. وخرجت وفود التجار تلهج بشكره ، وتدعوه له ، واستطاع بدهائه أن يقلب الكفة فى صالحه .. ولم يتعرض لرؤساء الجند ، واكتفى بأن طلب منهم .. أن يحصلوا من الجند على ما بقى لديهم من المنهوبات .. ولم يحدثهم أو يطلب محاكمتهم عن واقعة الخيانة ..!!

وأحس « عابدين بك » أنه سقط فى ورطة مجنحة .. تأكله من الداخل كمرض خبيث .. وهو على يقين أن « محمد على » ينتظر الظروف المواتية .. ليدفع بهم فرادى .. فلا يملكون دفاعا .. وليس من المستبعد أن يشتري ود الثلاثة بعنق واحد .. هو عنق « عابدين » وما ذلك بجديد عليه ..!!

وعلى المائدة جلس يحاول أن يبدو بلا هموم .. لكن الفكر كان يغليه .. ولم يشغله ما هو فيه عن نظرات زوجته .. كانت تفرسها فيه ، وتجمعها .. كأنها تستخرج من أعماقه شيئا .. وسألته أن يأكل .. فأجاب وهو يتمتم ، ويغضب ابتسامة .. ولكن زوجته ما زالت تنبش أعماقه بنظراتها .. حتى فقد صبره .. وقال يحاول أن يزيل من صوته التوتر والاضطراب .. إنه يأكل ويفكر فيما حدث .. فقد كان الجنود ينهبون ويسلبون بشراسة ..!

سكت .. فشل فى أن يأكل .. أحس أنه لا يجيد حتى الكذب .. كانت مأساته
تمشى داخله .. الرؤساء الثلاثة لو علموا بما فعله ضدهم ؟ .. يكفيه أن يعرفوا أنه كان
سافلا .. ندلا ، تركهم فى بيته ، وذهب ليشى بهم .. فى هذا وحده الكفاية .. هو
الانتقام ذاته .. لن يجرؤ على مواجهة أحدهم .. إما أن يفر إلى الشام أو الصعيد .. أو أن
ينتحر .. وليس « محمد على » بالذى يأبه لمثل ذلك .. وقد يفعلها !!

وزحف الصراع الذى يصطرع فى كيانه على ملامحه .. فتحولت حمرة وجهه إلى
زرقة كأنه يختنق ، وتحركت رموشه .. وهز رأسه بلا مبرر .. كأنه يطرد الهواjis
منها .. وهاجمته زوجته من جديد بنظرة كسكين مشرشرة .. أحس بها تمزقه . إنها لا بد
قرأت شيئا سيقا على جبينه ...!!

فأخذ حبل المبادرة ، وانقض يسألها !.

— ماذا فى الأمر ؟.. إنك لست كما كنت دائما ..!!

فصفعته بنظرة جديدة صفعا ، وهى تقول فى حزم :

— ماذا فعلت ياخوتك «يا عابدين بك» ؟؟

عبارة طارت فى جو الغرفة ، وانفجرت منها شظايا .. اقتحمت عينيه ، وأذنيه
فأصابته بالعمى لحظات ، وبالصمم لحظات أخرى .. وانفصل المقعد الذى يجلس عليه
عن كل شيء ، وسبح به فى الكون فلا يدرى أين هو ؟.. ولا ما هى الثانية التى
يعبرها ..!

كيف أدركت أنه خائن ؟ كيف عرفت أنه خرج متنكراً ؟ .. فمن أنبأها ؟.. وهل
هى وحدها التى عرفت ؟.. إنها النهاية ...!!

وحاول أن يشغل نفسه بالطعام .. يلقي فى روعها أن الأمر عادى . وأنه لا يعرف
معنى لعبارتها .. وأسرع يجمع نفسه ، وهو يزدد الطعام يفكر فى الجملة التى يجب أن
يلقى بها الآن ، وقال :

— عم تتكلمين « يا ألجه هانم » .. لقد كان يوما حافلا ..!! أخرجها بروده
المصطنع عن صوابها .. فتراجعت عن الطعام وهى تقول :

— يمكنك أن تخدع الجميع إلا أنا .. لقد خرجت متنكرا .. وعقب الوقت الذى
يستغرقه ذهابك كان الباشا يغادر القصر إلى القلعة .. فماذا تفسر ذلك ؟..!!

بعد هذا الإيضاح .. حاول أن يتلفع باللا مبالاة ، ويختفى خلفها .. حاول ، لكنه
فشل بعد كل هذه الأدلة .. لم يعد الإنكار يجدى .. لا بد من دفاع عن الحسة التى

بدرت منه .. والتهمة الحسيسة لا بد لها من دفاع أحسن منها ..! وتحول في غضب مستديرا عن الطبعام .. ووقف وهو ينظر بعيدا عنها .. فقد كان يخشى الشر الذي يتطاي من نظراتها .. وانخرط يقول .. إنه كان مجبرا على ذلك .. ولو أن أى إنسان مكانه .. ما فعل إلا ما فعله هو .. فالكل يدرك أن هؤلاء الثلاثة بالذات .. يحقدون عليه ، ويحسدونه على رضا « الباشا » عنه ، وإنهم حاولوا منذ شهور أن يقصوه .. لكى يكون بعيدا عن « الباشا » فيخلو لهم رحاب « محمد على » .. وثلاثتهم يملكون المئات والألوف من الجنود .. الذين يمكن أن يكونوا الذروع التى تمحيهم من بطش « محمد على » .. أما هو فجنده قليل .. وهو يريد أن تكون له يد عند « الباشا » ..!

اعتقد أنه بذلك وضع ما يعيد إلى نفسه الهدوء ، وما يحو احتقارها له من فؤادها .. لكنها رمته باشمعزاز ، وتحركت فى بطنه ومضت إلى غرفتها .. ومضى يتبعها كأنها تجره خلفها بأغلال موهومة ... ثم توقف ليستجمع نفسه .. حاول أن يعود إلى الخلف .. لكنه تبعها ، .. فلما ولجت غرفتها استدارت تغلق الباب .. فإذا بها تفاجأ بنظراته المتوسلة .. يستصرخها ألا تغلق الباب .. فتركته مفتوحا بلا مبالاة سحقته وجعلته يتمنى لو أنها أغلقت الباب .. فيقر فى ذهنه أنها تخشاه أو تقيم لغضبه وزنا .. فتمنى لو تراجع معلنا غضبه .. إلا أن ظهرها وهى تمضى جره إلى الداخل .. رغم أنه ..!!

سبقها بخطواته ليواجهها .. مستحضرا غضبه ، وصاح يسألها من نقل إليها ذلك ؟ يبرر لنفسه مطاردتها بأنه لم يكمل حديثه ، ملوحا بأنه لا يسترضيها .. لكنه فقط يريد أن يطمئن .. من أيضا عرف نذالته من سكان القصر .. وقالت وهى تلقى بنفسها على السرير فى يأس من حياتها معه .. إنها كانت تراقبه .. لأن سهرتهم طالت ، وكانت تخشى أن يصيب شقيقها « حجوبك » مكروه ..!!

هدأت خواطره بعض الشيء .. لأن نذالته لم يعرفها سواها .. وكان يتمنى أن يعرفها الجميع إلا هى .. لكن كيف يسترضيها ، وهى صاحبة طباع أقسى من طباع شقيقها .. لأنهم هكذا « الأرثوذية » .. وهو أيضا منهم .. ليته لم يتزوج « بأرثوذية » .. ليته لم يتزوج على الإطلاق ! وحتى يخنق كل الخواطر عنده .. استدار فأغلق الباب بيده !!

وهم بها فاحتواها بين ذراعيه ، وأسكرته رائحة عطرها النفاذ ، ورفعت درجة حرارته البشرة الملساء .. المشبعة بالحمرة ، وطرب لصوتها وهى تتأنى عليه فى عناد ... يضاعف من رغبته الملحة .. إلا أن رفضها له .. ألهب إرادته ، وأذل كرامته .. وواتاه غضب حقيقى يجتاحه عاصفا ... فيؤرق نفسه بعض الوقت .. فينطلق من غرفتها إلى جناح المحظيات .. وكأما اشتعلت النار فى جسده .. يستنجد بمن يعاونه على إطفائها ..!

أرسل إليه « محمد على باشا » بعد يطلبه فى الديوان .. فأرتج وركبه هم أوشك أن يرفض .. لولا أن الرسول قال له إن « الباشا » فى انتظار تشريفه .. وهى جملة لا تقال

للمطلوبين للشئق ؛ ولكن من يضمن له دهاء « الباشا » ومكره .. ونادى رئيس حرسه فأسرع للصعود إلى القلعة والتقى « بالباشا » فتبادلا التحية ، وأسر إليه أنه يريد للسكر معه إلى الإسكندرية ، وأدرك من ملامح « الباشا » أنه يخصه بالسفر معه .. فباغته زهو مفاجيء .. لكنه اعتقل الفرحة .. فقد يكون ذلك شركا ينصبه له « محمد على » ، وأغرق في تفكير لبرهة .. خلعه « الباشا » منه وهو يقول له أن يتأهب .. فالسكر سوف يكون بعد غد مع أضواء الصباح الأولى !!..

ودعاه « الباشا » إلى تناول الطعام معه .. فلم يستطع الرفض .. وعلى المائدة كان « كتحدا بك » ، « وإبراهيم أغا » ، وهما الحارسان الخصوصيان « للباشا » .. وهما من « الأرئود » أيضا ، وحدثه « الباشا » في كثير من أمور الدولة .. وتركز الحديث في حكاية « أحمد أغا لاذ » حاكم قنا ، وقوص وعدم اطمئنان « الباشا » إلى إخلاصه .. ثم غادر القلعة بعد الغداء مع حرسه وحاشيته !!

دلف إلى قصره ، وهبط من على جواده .. تركه للسياس .. وسعى إلى درجات القصر .. وشبت في صدره نار الهزيمة التي صفقته بها « أنجه هاتم » زوجته .. كاد يتراجع وهو يمضى إلى الداخل .. واقتحم جناحه ، وراح يخلع ملبسه ، وأقبلت جارية « حبشية » تساعد في خلعه ، وأدركت الخادمة أن سيدها منتفخ بالغيظ يوشك على الانفجار .. فما كادت تنتهى من مهمتها حتى ذهبت إلى غرفة سيدتها .. تنقل إليها صورة للحالة السيئة التي رأت عليها سيد القصر .. ولم تحب السيدة على ثثرة الخادمة .. بل أمرتها أن تعد لها الحمام ، وأن تكف عن الثثرة .. وبقي « عابدين بك » فى جناحه يفكر كأنه فوجيء بنبا فقد عزيز لديه !!

وحينما شعر بأن خطوات الخادمة لم تعد فى الجناح .. قام فمضى إلى غرفة زوجته .. كانت تنهى لدخول الحمام ، واندفع نحوها يهتف باسمها فى رغبة بدت فى انقباضه عليها من الخلف .. فاستدارت .. تطالعه بوجهها الذى أبرز الغضب مواطن الفتنة فيه .. فازدادت عيناها اتساعا ، وقفزت الحمرة على خديها ، وتضاعل فمها فبرز طابع الحسن على ذقنها كل ما حشده من وجد .. ثم انداح فى أعماقه متراجعا مرا كالعلقم ، صارخا كاللهب .. ورمته بنظرة عبأتها باحتقار مقزز ، ومضت إلى الحمام ، وتركتها واقفا كأنما الصدمة حولته إلى تمثال !!

أفاق بعد قليل .. فسار إلى الحمام .. كانت « الحبشية » تغادره ، واطمأن إلى أن « أنجه هاتم » دخلته .. وغادرت الجناح .. فتقدم إلى الباب ، وأغلقه بالمفتاح من الخارج فى هدوء .. ثم مضى إلى مكانه !!..

أرسل أحد جنوده إلى « حجوب بك » يقول له إنه يريد الآن لأمر هام ، وألا يعود إلا معه .. ثم أشار بيده للخادم القهوة « ياقوت » وهو شاب فى الخامسة والعشرين .. لإفريقى

سمح الملامح .. قوى العضلات .. فلبى الفتى الإشارة .. وحينما احتواهما الجناح قال له .. إنه نظرا لما يقوم به من خدمات له .. ولكى يبرهن له على أنه أحب خدمه إلى قلبه .. أعد له مفاجأة . وهى أنه اختار له جارية بيضاء رائعة ، زوجة له .. وأن الجارية تغتسل الآن فى الحمام استعدادا للفرح ، ولكنه يريد أن يخلع ملابسه ، وأن يدخل بها فى الحمام .. هذا هو شرطه الوحيد !!

وفتح الفتى فمه وأغلقه .. ثم حاول أن يشكر أو يقول شيئا ففشل .. فهو سيده إن شاء قتله ، وإن شاء باعه ، وإن شاء فصل عنه يده أو ساقه أو أعماه بخرق عينيه أو سلمه إلى حلاق ليحشث أعضاء رجولته فيصير « محبوبا » هذا إذا عاش .. كل ما استطاعه هو بعد أن طالت وقفته .. انحنى حتى قبل قدمى سيده .. عرفانا بالجميل .. ثم وقف بقامة منحنية .. ينتظر الإشارة بالبده فى تنفيذ المهمة .. وأخذته أمامه فجعله يتخلى عن ملابسه أمام الحمام .. فلما لم يعد إلا ما يستر عورته .. فتح باب الحمام ، ودفعه داخله ، وأغلقه مرة أخرى بالمفتاح .. ثم وقف ينظر من ثقبه ..!

فى أول الأمر .. ظنته المرأة الجارية الحبشية .. لكن مالبت أن تجمدت فى المغطس وخيل لها أنها فى حلم مرعج أو كابوس فظيع .. فعادت تغسل وجهها لعل الصابون خلط الرؤية عندها .. لكنها حينما تأكدت أن هذا الجسم لرجل .. ما شكت لحظة أنه آدمى .. فلا يستطيع هذا الإنسان إذ لابد أن يكون من الجن .. وطالما سمعت عن أساطير الجن فى الحمامات .. وفجر الخوف صرخة فى صدرها .. خيل لها أنها سمعتها .. فلم تدرك أن الرعب الذى حشد نفسه فجأة فى حلقها .. قد شل الحبال الصوتية .. فعجزت عن العمل .. أما « ياقوت » فما كاد يتبين أنها سيده حتى تجمد مكانه واستدار يجذب الباب بجنون .. لكنه كان يعلم أنه أوصد .. فقد سمع المفتاح وهو يدور فيه .. وراح يدهق يديه ، وبرأسه فى جنون .. لم يسعه عقله بما حدث .. فقد كان الهول الذى حل به يمكن أن يفتته من الروح .. وغادرت المغطس فى لهفة كعمود من النور .. ثم تحركت وسقطت على أرض الحمام جثة بلا وعى .. وازداد هياج العبد ، وهم أن ينقذ تلك التى استلقت على أرض الحمام بلا حراك .. إلا أنه تذكر أنها عارية وأنها سيده ، وأنه .. وأنه .. فلم يسعه إلا أن يركز كل مخاوفه فى أن يكور نفسه ، ويدق الباب بجسده .. ليسقط بعدها مفكك الأوصال على الأرض بين صارخا .. لا يعرف ماذا حل بسيده حتى يفعل به ما فعل ..!

رأى الزوج المهزوم كل ذلك بعينيه فاكتفى بهذا القدر .. وغادر الحمام فى انتظار « حجو بك » الذى أقبل ملهوبا .. فى عينيه آثار فزع يحاول أن يخفيه .. لم يستطيع أن يقرأ من ملامحه المتجهمة شيئا .. سأله عن الخبر ؟ .. لكنه لم يجبه .. أخذه وطلب منه أن يفتح باب الحمام بيده .. كانت خلف الباب جثة العبد « ياقوت » وكان يلفظ أنفاسه .. فتحركت ساقه .. حينما أزاحه بقدمه .. فوضع حذاءه فوق عنقه حتى سمع

فرقة عظامها .. ومضى « حجو بك » ثم توقف مبهوراً .. كانت شقيقته جثة بلا حراك !..

وفي عشية الغروب .. خرج من الباب الخلفى للقصر حمار يحمل غرارتين .. ثم أغلق الباب الصغير .. كأن شيئاً لم يحدث .. وبات « عابدين بك » ليلته في أحضان إحدى محظياته .. ثم رافق « الباشا » فى السفر إلى الإسكندرية !!

★ ★ ★

الحرية أيام المماليك



الزمر—ردة

*** مات الأمن صريحا .. فوق دروب العار !
وانتصب الرعب طهر أمانى كبيرة .. بأيدى صغار !
ومشى يختال الفزع الأكبر . . .
يغتال اليابس فى إصرار . . .
ويبتهك الأخضر . . .

اقتحم العسكر الأجلاف قصور العز .. داسوا بأقدامهم الغليظة .. أقدس أماكن
الحرملك .. اندفعوا مع خيوط الشمس .. يتصايحون نشوى بالخراب الذى
ينشرونه .. مزهوون باختراقهم تلك الحصون التى كانت كالجنة محرمة عليهم ..
يصبقون ويتمخطون على السجاد الشيرازى .. ويخطفون التحف يدسونها فى
جيوبهم .. انتصبت قاماتهم كرهط من الجن فى غبشة ردهات الحرملك .. وراحوا
يمدون أيديهم إلى أعناق الحريم والجوارى ، ويمزقون ملابسهن فى مطاردة وحشية .. لكى
يضعوا الأيدى الناعمة البضة فى حبال من الليف وقيود حديدية . . !

والياس الأسود ران على الحريم .. رسم الخوف نفسه على جباه الجوارى ، وهن
يحاولن الإفلات دون جدوى .. كدجاجات فاجأ حظيرتها طباخ .. يريد أن ينتهى من
مهمته سريعا .. يطارد الدجاجات بيد ، ويشهر فى الأخرى سكينه .. !

وامتلأت صدور الأجلاف زهوا ، وكحيلات العيون يتضرعن ، ويتوسلن ، وهم فى
موقف السيادة .. بعد أن كانوا لا يجرؤون على الوقوف فى طريق إحداهن .. ولو أن
أحدهم قبل اليوم .. وصل ولو عن طريق الخطأ إلى المكان الذى يقف فيه الآن .. لدفع
عنقه ثمنا لذلك فى التو واللحظة . . ! !

كانت تزقب كل ذلك من مجلسها .. فى آخر القاعة ، والأسى الشاحب
يملؤها .. يحشد المرارة فى فمها .. فقد عرفت منذ أمس أن « حسن باشا القبطان »
مبعوث السلطان .. أمر بالقبض على كل حريم الأمراء المصريين ، ونهب بيوتهم ، وبيع

الجوارى ، والحريم ، والأولاد فى المزداد .. عقابا لهم ووفاء لما فى أعناقهم من ديون للسلطان .. فقد امتنعوا عن دفع المبلغ السنوى المفروض على « البر المصرى » واحتجوا فى ذلك بأن الفلاحين لم يدفعوا ، والأراضى لم تعط خيرا .. لأن « النيل » لم يفيض كبقية الأعوام .. ولكن السلطان كان يعلم أن « مراد بك » ، و « إبراهيم بك » .. رفضا دفع الأموال .. ضنا بها ، ولأنهما أنفقا كثيرا فى حرب بعضهما بعضا ، وأوشكا أن يعجزا عن تجهيز المحمل الذى يسير إلى الأراضى المقدسة عقب كل « رمضان » .. !

وأخر مبعوث جاء من عند السلطان .. رده « مراد بك » مدحورا ، وأغلظ له القول ، مدعيا أن « البر المصرى » بالكاد يفي بمتطلبات أمرائه الذين يحكمونه ، ويكفى السلطان بقية بلاده الواسعة .. وما كاد المبعوث يصل إلى « إستانبول » حتى أرسل السلطان « حسن باشا القبطان » على رأس أسطول من المراكب المسلحة بالمدافع ، وبعض الفرق من جنود المغاربة القساة .. لتأديب العصاة ، وجمع ما هو متأخر لدى المماليك « المصرية » .. بكل عنف مهما بلغت درجاته .. !!

وأيقن « إبراهيم بك » حينما وصل الأسطول إلى « الإسكندرية » أن الأمر ليس هزلا ، وحاول إقناع « مراد بك » .. أن يتدبرا المال بشكل أو بآخر .. لكن « مراد » أصر على أن يخيف « الباشا » القادم ، ورتب حملة ذهب بها إلى « البحيرة » ، واستعد لدخول « الإسكندرية » .. إلا أن طلائع « حسن باشا القبطان » هزمت قواته شر هزيمة فعاد مكسور الجناح إلى « إمبابة » ، وعساكر السلطان تتبعه .. !!

وخشى أن يعبر « النيل » .. فيتلقى تأنيب « إبراهيم بك » على تهوره .. فأرسل إليه من ينقل إليه الصورة السيئة ، ووصلت الأخبار فى نفس الوقت تقول إن « حسن باشا القبطان » قد غادر « دمياط » فى طريقه إلى « القاهرة » .. فراح « إبراهيم بك » يجمع رجاله ، ويتأهب للهرب إلى « البساتين » لكى يعبر « النيل » من هناك إلى « الجيزة » .. ثم يفر إلى الصعيد مع « مراد بك » فالأمر بالقبض عليهما انتشر فى طول البلاد .. فقد اعتبرهما السلطان من العصاة ، والكفرة الخارجين على حكم الله ، وخلافة السلطان خليفة المسلمين .. !

ولم يتمكن من حمل بعض مافى قصورهم من متاع ، وبشر ، وجوارى ، ومحظيات ، وأولاد ، ونساء فما كان من « حسن باشا القبطان » إلا أن أصدر أوامره بعد وصوله القاهرة بيومين وعلمه أنهما هربا .. ببيع كل ما فى قصورهما للوفاء بدين السلطان وهجم الجنود المغاربة ينفذون أوامره .. !

أحسست « زمردة » من مكانها .. أن الكارثة لن تبقى ولا تذر .. وأن على كل إنسان أن يحاول النجاة بنفسه ما استطاع .. هذا هو يوم القيامة قد جاء .. وذهلت كل مرضعة عما أرضعت ، وكل صديق عن صاحبه .. الجميع ينتظمون في الجبال .. كالمجرمين أو أسرى هزموا في معركة .. وسوف يؤخذون إلى سجن « القلعة » .. ثم يباعون في المزاد ..! لا فرق بين أم مرزوق زوجة « إبراهيم بك » وأم ولده ، وأقل جارية حبشية تقوم على خدمة الحمام ..!

ولن يعرف أحد من هي « زمردة »! محظية « إبراهيم بك » التي تلقاها من أستاذه « أبو الذهب » .. وقد يكون من مصلحتها ألا يعرف أحد ذلك .. « زمردة » التي يتسرى بها « إبراهيم بك » حينما يزهد في كل نسائه .. فقد تلقاها صغيرة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها .. وخصها بما لم يخص به امرأة من نسائه .. ورغم أنها اقتربت من الأربعين .. إلا أنه لم يزهدا .. وظلت ذات جناح .. تستقبل فيه ضيوفها ، ويخدمونها جواري كما تفعل أى زوجة .. لم تبلغ محظية في تاريخ المحظيات ما بلغته .. لكنها اللحظة تموت .. فإن الحبلى إذا وضع في يديها ، وباتت في سجن القلعة .. فسوف تموت قهرا ، واشمئزأ ، وهربا من ذل أكيد قادم ..!

فجأة سقطت الشمس .. انطفأت الأنوار من حولها ..!

أحسست أنها تسبح في ظلمة .. إنها الآن تواجه مصيرا هرب منه « إبراهيم بك » نفسه ..! واحتقارها للجنود وللباشا ، وللسلطان .. لن يعفيها من البطش أو من البيع أو من السجن ..! عليها أن تختفى فورا من هنا .. لكن كيف ..؟

لقد سد الجنود مدخل القصر .. وبدأوا يطاردون الجاريات الحبشيات . ومن في حكمهن .. ولا بد من أن دورها سيحىء ..!

لم يعد هناك وقت للحزن ، ولا للتأمل .. يجب أن تتصرف فورا ..!

وتراجعت إلى الباب الضيق الذى خلفها .. وصعدت الدرجات المؤدية إلى الطابق العلوى .. حيث جناحها الذى شهد أجمل أيامها مع « إبراهيم بك » ..! ألقت نظرة سريعة .. ها هي كل متعلقاته .. قفاطينه .. عماماته .. سيوفه .. مجوهراتها .. جمعتها بلا تفكير لكي تربطها على بطنها ..!

ارتدت قفطانا ، وجبة ، وعمامة .. خبأت شعرها تحتها .. نظرت في المرأة .. كانت تنقصها لحية ، وشارب .. فقصت أطراف شعرها ، وغمست بعضه في العسل ، وألصقته بوجهها وتحت أنفها .. لكن في عينيها كانت نظراتها الأنثوية يمكن أن تكشفها .. فقررت أن تربط عصاة على عينيها تتيح لها رؤية الطريق ، تكشفها ..!

وصعدت على السطوح .. ثم تدلت بحبل إلى البيت الخالى الذى بجوارها ..
كان « إبراهيم بك » قد طرد أصحابه .. ومضت حتى وقفت وراء بابه .. فربطت
عصابة بيضاء على عينيها ، وخرجت تدب على عصاتها .. فلم يعرها أحد اهتماما ..
دت كشيخ كفيف أو مريض العينين !..

لم تفكر إلى أين تمضى إلا بعد أن صارت فى الشارع .. كأن كل ما كان يهمها هو
أن تهرب فقط .. فى الشارع فكرت فى أن تتجه إلى بيت « الشيخ السادات » لكى
ستجبر به .. لكنها ترددت فقد لا تستطيع الوصول قبل أن ينكشف أمرها .. فجأة لمع
فى ذهنها الشيخ « الغرايلى » الذى يقرأ عندهم كل يوم .. إنه الوحيد الذى يمكن أن
تد بيته مفتوحا لها .. فى مثل تلك الورطة !..

ولكنها لا تعرف بيته على وجه التحديد .. كانت تسمع من زوجته .. عندما تجيء
بها فى الأعياد .. أنهم يسكنون بالقرب من « قرافة » باب الوزير ، وهى الآن تسير فى
سوق السلاح .. خطوة .. خطوة .. والشمس ملتهبة ، والتراب فى الشارع يكاد
خنقها .. وأحست بالكرب الحقيقى .. كل ما فيها مستفز ، وأعصابها متوترة ..
خشى أن تتعثر أو تسقط فينكشف أمرها .. وبدأ الشعر والعسل يأكل جلدها ..
لعصابة على عينيها .. وامتلا حلقها بالغثيان .. وتمنت فقط لو أنها جلست تحت
قيفة ظليلة .. لكن ذلك كان حلما بعيد المنال !..

وشعرت أن الشارع يمتلىء بالناس .. وأطفال يتسابقون ، والمنادى على حماره يعلن
سم « القبطان حسن باشا » مرسوم السلطان .. أن الجارية محظية « إبراهيم بك »
يت ، واسمها « زمردة » ، ومن يأويها أو يحميها أو يسهل لها الهرب .. ليس له سوى
يت عقابا !..

والتصقت بالجدار حتى تخلقى الشارع لمن يتابعون المنادى ، وحتى لا يدفعوها
سقط .. ولولا خوفها من الموت لسقطت من الإعياء .. لكنها تحاملت ، وظلت
ير ، وهى فى هيئتها تلك .. حتى وصلت إلى « القرافة » .. وقفت حائرة تنقر
رض بعصاها .. إلى أن عبر الطريق طفل .. فقالت وهى تحاول أن تجعل صوتها
شنا :

— فى بيت الشيخ « الغرايلى » يا جدع ياللى ماشى . . ٩ .

وتقدم منها الطفل .. فأخذ عصاتها ، وجرها منها .. فلما صار أمام الباب نادى :

— ياعم الشيخ « عثمان » .. فيه واحد شيخ عايزك !..

ثم مضى .. ووقفت هى .. تتمنى أن تكون رحلة العذاب بالنسبة لها قد

انتهت .. وفتح الباب الشيخ « عثمان الغرايلى » .. ودعا الشيخ الذى جاء يسأل عنه إلى الدخول ... فتقدمت تدب بعصاتها .. أغلقت الباب بعد دخولها .. مما أذهل الشيخ .. فوقف مبهوراً .. ثم شدت العصابة من على عينيها .. فصاح الشيخ :

— يا لطيف .. يا لطيف ..

فقلت له :

— أنا « زمردة » يا شيخ « غرايلى » ..

فى لحظة .. أدرك الشيخ كل شىء .. جاءت زوجته تسعى على صوت الشيخ المدعور .. حملت فيها .. ولم تستطع « زمردة » أن تتمالك نفسها .. كانت فى حاجة إلى صدر تبكى عليه .. فأجهشت بالبكاء ، وتلفتها زوجة الشيخ فى حنان جارف .. !!

قالت زوجة الشيخ لها .. إنها منذ لحظة فقط .. كانت تتكلم مع الشيخ عن الكارثة .. ولم يذكر أحدا غيرها فى قصر « إبراهيم بك » .. ! فهى وحدها القريبة إلى قلبيهما .. ولعلها كانت على الباب ساعة الحديث عنها .. وقالت « زمردة » إن معنى ذلك أنها تستطيع أن تأمن على نفسها .. حتى يجدا وسيلة لها تسافر بها إلى الصعيد .. لتلحق بإبراهيم .

لكن الشيخ أجاب بأنه لا يأمن عليها شر الطريق .. وليس لها إلا أن تظل معهما حتى يرحل « حسن باشا القبطان » فهو لابد أن يرحل عاجلاً أو آجلاً .. ثم يعود « إبراهيم بك » ، ولكى يأمن شر ألسنة الجيران .. عليها أن تدعى أنها قريبة لزوجته .. قدمت من الأرياف .. !!

وتتابعت الأيام .. لاحت فرصة لسفرها مع قافلة .. لكنها ترددت عرضت على الشيخ أن يسافر معها ثم يعود .. لكنه خشى أن ينفضح أمره .. ففضل أن تظل فى البيت .. فهى مغامرة أقل خطراً من السفر .. إلا أن خبر هربها ، وانتشار أخبار بيع بقية الجوارى .. أثارت العلماء والشيوخ .. وركب الشيخ « السادات » إلى « حسن باشا القبطان » ؛ ومعه علماء الأزهر فقال له .. إن بيع أمهات الولد والزوجات غير جائز ، وإنه يجب أن يكتفى ببيع ما يملكن من أموال ، وجواهر .. وبعد أخذ ورد .. وافق على أن تدفع كل جارية من جوارى « مراد بك » ، و« إبراهيم بك » مايساوى ثمنها .

— أى تشتري نفسها .. !

وأن يوقف بيع مالم تكن قد بيعت منهن .. ولكن القصور صودرت وسمح « لأم مرزوق » زوجة « إبراهيم بك » بأن تعود إلى منزل لها فى الناصرية وتوافد الرسل على

ديوان « حسن باشا القبطان » يدفعون عن الجوارى الذين وكلوهم عنهم . !
وذهب الشيخ « الغرايلى » ليدفع عن « زمردة » .. إلا أن « الباشا » أصر على
حضورها بنفسها لكى يراها .. وعاد الشيخ مدحورا .. ينقل إليها الخبر .. والحزن
يسحقه سحقا .. وقفزت زوجته ..قائلة :

— لكنه لو رآها لأخذها .. ما قولك ياشيخ .. خذنى إليه .. !! !
وما كاد « الباشا » يراها ..حتى صاح :

— أعوذ بالله .. هذه محظية « إبراهيم بك » ردوها بلا تعويض ..
اطردوها ..وعادت فاستقبلتها « زمردة » بين ذراعيها ، وأخرجت لها نصف ما تملك
من مجوهرات .. ثم لحقت « إبراهيم بك » فى بنى سويف مع الشيخ .. الذى أهداه
بقية المجوهرات ..!!

الحريم أيام المماليك



هزارب منه الحريم

هارب من الحريم !

*** عندما تقع الواقعة .. ترتفع الرغبة فى الحياة إلى قمته .. فيرتشف الناس فى قلب الخطر .. كل ما يتاح من اللذة .. كدفاع أخير .. كانتقام من عدم قادم .. بالاستغراق فى الوجود الأخير ...!!

*** ليس الآن ، ولا فى هذه اللحظة .. لكن الرغبة تملؤه حتى أذنيه .. الرغبة فى الخلاص .. الرغبة فى تحرير عنقه ، وروحه من طلابها .. فهو مطلوب للموت .. مطارد من الباشا وكيل السلطان .. فزبانية الجلاد يطاردونه .. وقد اختفى منهم بمعجزة .. بعد أن فر بجواده ، فتابعوه .. من القلعة حتى .. ترك حصانه على باب « الداودية » وفر ماشيا .. فى الأزقة والحوارى .. حتى بلغ قصر « حسن بك الجداوى » فى « درب سعادة » فاقتحم باب الحريم .. وفجأة وجد نفسه .. يسبح فى الجة من نظراتها ..!

فى أول الأمر .. فزعت .. شهقت .. وقفت .. ارتدت إلى الخلف .. أسندت قوامها السحري إلى الجدار .. تجمع ثيابها تحاول ستر بقية جسدها .. والمياه تقطر منها .. كانت تسير من الحمام إلى غرفة نومها .. ظنت أن سيدها باغتنه الأحداث .. لكن الفارس وقف مرتبكا . سيفه فى يده .. حاولت أن تصرخ بعد المفاجأة .. اقترب منها وضع يده على فمها .. قال مفزوعا . إنه يستنجد بها من موت محقق ..! كان الرعب فى عينيه .. يضيفى عليه جمالا .. لم تره فى الوجوه الآمنة .. ورموشه السوداء الطويلة توشك أن تصل إلى وجنتيه .. وشاربه الرفيع ، واللحية الخفيفة التى تحيط بوجهه الشديد البياض الممتزج بالحمرة .. يبرز فتنة رجولته ، وسحر شبابه الذى يوشك أن يذهب به غضب وكيل السلطان عليه ...!

ألقت عبارته فى حناياها مع ذهول المفاجأة دهشة .. عبرت عنها بجلوسها على الأريكة التى كانت بجوارها .. ثم ما لبثت أن وقعت .. ثم عادت فجلست ، وخرج صوتها مرتاعا .. تسأله .. ماذا تفعل ..؟ ماذا يمكنها أن تفعل ..؟ كأنه هو الذى يملك الحل ، وليست هى .. فكرر طلبه بأن تهىء له مخبأ لساعات فقط .. ريثما يكف زبانية « حسن باشا القبطان » عن طلبه .. ثم يمضى ، ولها منه ما تطلبه بعد ذلك ..!

كان جناحها الذى تقيم فيه كجارية من جوارى الأمير « حسن بك الجداوى » يقع فى أول القصر على يمين الداخل من باب الحريم .. يتكون من عدة درجات تصعد بين

جدارين يحجبانه عن بقية القصر .. ثم تنتهيان بالمدخل المؤدى إليه .. حيث الصالة الكبرى .. ثم غرفة النوم .. ثم غرفة الوسط التى بها الباب الذى يربط الجناح ببقية الحرم ، ويسمى باب « الأمير » .. أما الحمام فقد كان مع ملحقاته فى الدهليز الذى يلى المدخل .. ولم تكن خادمتها الحبشية قد عادت بالطعام من مطبخ الحرم الذى ذهبت إليه ..!

كان فى وسعها أن تهرب ، وأن ترفع عفيرتها .. لكنه يشهر سيفه فى يده ، وهو على استعداد لأن يفرسه فى صدرها لو أنها فعلت ذلك .. لكن الذى منعها من الاستغاثة ليس السيف وحده .. تلك الرموش السوداء التى تظلل خديه هى السبب الحقيقى .. رجولته الشامخة التى أبرزتها الأزمة .. هذا الجبين المضىء كصفحة من الفضة انعكس عليها لهيب الشفق .. والأنف المعتدل كعدالة مفقودة فى مجتمع الممالك .. كل ذلك جمد الاستغاثة ، وجعلها تفكر فى حمايته .. لا لأنها تطمع فى مكافأة .. فقد أحسّت أن المكافأة التى تسعدها .. هى أن تحميه ، وأن تنجح فى مهمتها ..!

وازداد الطرق على الباب الخارجى .. كان مفتوحا على مصراعيه .. إلا أن الجنود لم تكن لديهم الجرأة على اقتحامه ، وما كانت مكانة « الأمير » صاحب القصر تسمح لهم باقتحام حريمه مهما كان السبب .. إلا إذا كان لديهم أمر من نائب السلطان ، وأن يكون قائدهم « أميرا » من جنسه .. لكنهم استمروا يطرقون الباب .. لعل أحد الحراس يخرج إليهم .. فينبهونه إلى أن أحد المارقين قد دخل الحرم .. وأنهم فى انتظاره ..!

وتكرر الطرق .. وهو يتمعن فى ملامحها الملائكية .. وأفاق على رائحة الطيب الذى ينفذ منها ، وشعرها الذى تقطر منه المياه ، وقد انسكب حول وجهها ، والتف حول عنقها الرائع .. وجزء من صدرها يبدو مع الشعر الناعم .. كضيء من مشكاة تحيط بها ظلمة غامضة .. ولعينيهما سنا يبرى بالسيف الذى فى يده .. وعربدت رغباته الشابة دفعة واحدة فى عناقها .. ولكنه كاد يصيح فى أعماقه .. ليس الآن .. ولا فى هذه اللحظات ..!! إنه فى قلب الخطر ، وعلى حافة الموت .. فكيف يعبر خياله هذا الخاطر .. أم هو الشعور بالنهاية .. يدفع النفس إلى أن تعب آخر جرعات الأمل .. حتى وهى مفلسة ليس فى رصيد أيامها وقتا لممارسة الأمنيات !!؟

كان من الجنون .. أن يعيش كلاهما فى عين الآخر أكثر من ذلك .. والطرق يعلو دويه .. يقتحم دهليز القصر .. يرتطم بالجدران ، ويستلقى فى الردهات .. وأحسّت بأقدام تقترب .. أقدام تعرف دبيبها .. وفى لحظة أفاقته .. وكأنها دبّت بشعور يملكها ولا تملكه ماذا تفعل .. انحنى نحو الأريكة .. وفتحت أسفلها باين .. أشارت له .. فاندفع داخلها ، وأرخت هى الستر عليها .. والأقدام على وشك أن تقتحم الباب .. كانت الجارية الحبشية الخاصة بها ..

أخذتها ، وانسابت معها إلى داخل الجناح بعيداً عن الأريكة .. وانطلقت
« الحبشية » تثرثر عن أسباب الضجة التي فى الخارج .. إنهم يزعمون أن الأمير « حسن
كتخدا » مراد بك ورسوله إلى الحاكم قد جاء من الصعيد مع أربعة من زملائه كرهائن ..
عند « حسن باشا القبطان » وكيل السلطان ، وبعد أن عرضوا شروط الصلح التي وضعها
الأميران القاران .. أنزلهم فى ضيافته حتى يقرأ الشروط فى الديوان .. لكن وصلته رسالة
من السلطان .. يطلبه للسفر ، وأن ينصب مكانه « عابد باشا » .. وفى الصباح طلب
الرهائن .. فذهبوا إليه .. فقال لهم إنه يرفض الشروط ، ويأمر بوضعهم جميعاً فى
السجن . واحتاط بهم الجنود ، والإنكشارية ، وساقوهم إلى المسجد .. لكن أحدهم ،
وهو « الكتخدا » هرب بجواده ، وانحدر من « القلعة » فطارده حتى سبقهم فترك
جواده على أول « الداودية » ثم اختفى .. وهم يقولون إنه وجد باب الحريم مفتوحاً .
ناقتحمه .. وقد تصدى لهم الحراس ، ونفوا أن أحداً دخل الحريم !..

من حظ الجارية « مواكب » ومن حظ الخادمة « الحبشية » .. أن كليهما لم تكن
نظر إلى وجه صاحبتهما .. فقد كانت الأولى جالسة إلى المرأة .. تكمل زينتها ، والأخيرة
كانت مشغولة فى إعداد الطعام لسيدتها :

فقد تعاقبت كل ألوان الطيف على ملامح « مواكب » ورأت ذلك فى المرأة .. مع
كلمات الجارية .. وإن كانت لم تع ما قالت « الحبشية » بعد أن ذكرت اسم « حسن
كتخدا » مراد بك .. فقد أحست أن ظنها لم يكذبها ، وأن حدسها كان صادقا وانبعثت
داخلها الذكريات ... تجلجل فى أعماقها .. كصهيل الخيل .. حتى خيل لها أن
« الحبشية » سوف تكتشف سرها لو نظرت إلى ملامحها !..

هذا هو « حسن الصغير » الذى كان مملوكاً « لحسن بك الأربكاوى » .. فلما
نارت الأيام على سيده وقتل ، ونهب قصره ، وخربت دياره .. افتتح حانوتا لبيع التبنك
والصابون فى الأربكية ، وأطلق الناس عليه اسم « حسن تبنك » .. وبذلت كل ما
تستطيع لكى تتصل به وهو فى حانوته .. لكن كل جهودها فشلت .. ثم عرفت أنه باع
لحانوت ، وانقطعت أخباره .. ثم علمت بعد سنوات أنه التحق بخدمة « مراد بك »
رجعله من توابعه !..

لم تكن على وجه الدقة تعرف من أين جاءت .. نشأت فى حريم أمير من المماليك
كان يسكن « حوض الداودية » ثم هوجم القصر فى إحدى الغارات ، وسيقت إلى حريم
« حسن بك الأربكاوى » وكانت شابة مقبلة على السابعة عشرة ، ولكن سيدها لم يتنبه
ليها إلا بعد سنين .. خلالها عرفت « حسن الصغير » .. فقد كان من الغلمان الذين
يدخلون على الحريم .. ثم كبر فمنع .. وكانت تلقاه فى الدهاليز ، والأركان ، وفى
ليالى القمرية فى حديقة القصر .. بعد أن ينام الجميع .. فلما تنبه سيد القصر إليها ، وقد

رآها تدخل عليه بالشراب ، وهو عند محظيته .. أمر كبيرة الجوارى أن تعدها له فى الليلة القادمة ، وأن تمنحها جناحا كبقية الجوارى اللواتى يتردد عليهن .. فقد كانت حتى يومها بلا جناح .. تبيت ، وتأتمر بأمر كبيرة الجوارى مع الباقيات ..!

وحسدتها زميلاتها ، فقد صدر الأمر بنقلها من جوارى الخدمة إلى جوارى النعمة .. وبدأت مراسيم إعدادها ، وأدخلت الحمام ، وجهازت العطور ، وأعدت الزينة واختارت من زميلاتها وصيفة لها .. فهى عروس الليلة لسيد القصر « حسن بك الأربكاوى » لكن ذلك لم يتم .. خرج « حسن الأربكاوى » إلى « القصر العبنى » ليلتقى « بحسن بك كشكش » ، « وعثمان بك الجرماوى » بناء على طلبهما ، ولكنه لم يعد .. أعلنوه بأنه متهم بالاتصال « بعلى بك الكبير » ونفذوا فيه حكم الإعدام .. فقطعوا رأسه بحضور « إسماعيل بك أبو مدفع » ، « ومحمود بك » ، « وقاسم أغا » ثم هوجم قصره ، وبيع كل شئ فيه ، وذهبت العروس مبيعة إلى قصر « حسن بك الجداوى » ..!

الحوادث تجرى فى حياة الجميع بلا قواعد ولا نظم .. الكل يحيا حياة المحارب الذى ينتظر الموت .. فيجعل همه أن يعب من الحياة .. التى يقتنصها .. فهو لا يأمن أن تجيء اللحظة القادمة .. فتجده طليقا لم يسجن .. أو حيا لم تقطع رأسه .. لذلك كانوا يعيشون فى حرص على إشباع رغباتهم بالوسيلة التى يملكونها .. مهما كانت هذه الرغبات وأيا كانت الوسيلة .. ولعل العنف نفسه كان إحدى هذه الوسائل .. عند الرجال ، وأحيانا عند المرأة إذا لم يكن من الأمر بد ..!

حينما استقر « حسن الكتبخدا » داخل بطن الأريكة .. شعر أنه يدخل القبر حيا .. من الممكن أن يصبح هذا الصندوق قبره الأخير .. فالباشا لن يتركه .. وسوف يتمكنون من الوصول إليه اليوم أو غدا أو بعد الغد .. وهذه الجارية .. التى حشدت فيه رجولته رغبة واشتهاء .. سوف لا يتركها تفلت من يده .. حتى لو قبضوا عليه بعدها .. سوف يذهب إلى السجن أو يموت .. لا أحد يستطيع أن يقول له الآن إن فى غده غير هذا ..!!

والتفتت إلى « الحبشية » فقالت لها .. إنها تتوقع أن يزورها سيد القصر الآن بعد الإفطار .. لذلك ترجوها أن تعيد نظافة الحمام بالعناية المعهودة ، وأن تعد المناشف الجديدة ، وترتب كل شئ .. إلى أن تكون قد انتهت من إفطارها ..

ودارت « الحبشية » فى الجناح دورة .. ثم اتجهت إلى الحمام .. ومضت خلفها « مواكب » ، وفى خفة مدت يدها فأغلقت باب الحمام من الخارج .. واتجهت إلى الأريكة .. ففتحت الباب .. وطلبت منه أن يخرج ليتناول الإفطار ..!

مدت يدها تساعد على الخروج .. ووقف بقامته المديدة أمامها .. فسارت أمامه .. وهو لا يكاد يصدق .. مما يعانیه من مشاعر شتى متباينة .. متضاربة .. تضطرب فى

صدره .. حينما أحس بالسكينة التي تشيع في الجناح .. والهدوء الذي يحف بها في جلال .. ماتت توتراته التي كانت تجعله كالقوس المشدود .. وزايله الخوف الذي كان يجثم في كل نقطة دم في عروقه .. وكان على استعداد لأن يسلم نفسه لأعدائه يفعلون به ما يشاؤون ..!

أشارت له إلى مائدة الطعام .. وغابت في الداخل .. فأغلقت « باب الأمير » المتصل بالقصر .. وبذلك أمنت أن تفاجأ من الأمام أو من الخلف .. وعادت لتجده لم يمد يده إلى الطعام .. كان مشدوها يتلفت حوله .. يحاول أن يقرأ غموض ما يحيط به .. ألم يكن طريدا من لحظات ..؟ فكيف تقام له حفلة تكريم !

وجلست تجاهه فبدأت الطعام .. قائلة .. إنها تدرك أنه قد يخشى من أن يكون الطعام مسموما .. ولكنها لن تتخذ معه هذا الأسلوب ..! وأحس بالخجل ، وأسرع يأكل ومازالت الدهشة في عينيه .. يبحث عن جرأته فلم يجدها .. فقالت تحته على الأكل :

- كل كثيرا يا حسن بك ..!

حملق فزعا .. وقف الطعام معلقا في حلقه .. سألها بكل جارحة فيه إلا لسانه .. كيف عرفت اسمه ..؟ فتابعت ..

اسمك حسن بك الصغير .. الأزيكاوى .. الحديقة .. الليالي القمرية .. حانوت التباك .. مواكب .. يا حسن ..!

قفز واقفا .. خلع عدته التي كان يرتديها .. وأجلا معا تناول الطعام !!

عاد الجنود الذين طاردوا الفارس الهارب .. ليقولوا « للبasha » في القلعة .. إن الفارس دخل حريم « حسن بك الجداوى » ، وتصدى لهم الحراس فمنعهم من اقتحام القصر .. فأرسل « البasha » فورا أحد الأمراء مع قلة من الجنود لحضور « حسن بك الجداوى » للمثول بين يدي « البasha » وانزعج الأمير من الطلب . فركب على الفور معهم وصعد إلى « القلعة » وهو لا يدري ماذا ينتظره ؟ ولا يعرف إذا كان سيعود أم سيلقى به في السجن .. أو أنه يصلى ظهر ذلك اليوم ؟!

فلما مثل بين يدي « البasha » .. ولمح ابتسامته اطمأن بعض الشيء .. فلما أنهى إليه الخبر .. قال إنه ليس لديه ما يمنع أن تذهب ثلثة من الجنود لتفتيش الحرم ملك شبرا شبرا .. فإذا وجدوه عادوا به .. فلم يكن أثقل على قلبه منه ، ومن سيده القديم « حسن الأزيكاوى » ، ومن سيده الجديد « مراد بك » .. لأنهم جميعا من توابع « على بك الكبير » العاصي الخارج على حكم السلطان خليفة المسلمين ..!

وانطلق الجنود نحو قصر « درب سعادة » !!

بعد وقت ليس بالقصير .. كان « حسن كتنخدا » يعود إلى مكانه فى بطن الأريكة ، واقتربت « مواكب » من الحمام .. ففتحته ، ونادت على « الحبشية » التى جاءت من الداخل تعلن .. أنها جعلت الحمام كله كالبللور .. طلبت منها فى سرعة أن تعود إلى مطبخ الحريم ، وأن تنقصى لها آخر أخبار الضجة .. حتى تطمئن إذا كان سيد القصر سيجىء إليها اليوم أم لا ..؟

وما كادت تخرج .. حتى أسرع « مواكب » .. فأغلقت الباب من الداخل ، وخرج « حسن كتنخدا » فذهب الحمام ، واغتسل ، ثم أخذته إلى الداخل ، واجتازت غرفة المخدع إلى الدهليز المؤدى إلى باب الأمير الموصل للقصر .. وقالت له إن فى وسعها أن ينتظرا معرفة الأخبار من « الحبشية » ثم ينطلق من هذا الباب الذى سيؤدى به إلى نمر طويل .. ثم إلى درجات يهبطها .. فيجد نفسه فى قلب القصر ، وعلى يساره .. طريق يؤدى إلى حظيرة الخيول ، من هناك يمكنه الهرب .. إما راجلا .. أو على ظهر حواد .. إذا استطاع أن يخدع السياس أو يحتال عليهم !!..

وأحست بطرق على الباب الخارجى للجناح .. فأسبرعت نحوه ، وزاغت الأبواب دون « حسن كتنخدا » ، وذهبت فإذا « الحبشية » بالباب فى هلع .. دخلت تقول .. إن « الباشا » أرسل لسيد القصر يستدعيه فى « القلعة » ، وأنه ذهب إليه .. ولا بد أن كل ذلك بسبب الأمير الهارب الذى لجأ إلى هنا !!..

وأطرقت « مواكب » متصنعة الحزن .. وقالت « للحبشية » معنى ذلك أن سيد القصر لن يجيئها اليوم .. بعد أن تهيأت ، وهيأت نفسها للقائه .. ليتها تذهب لتقصى أكثر ، ولتعود بأخبار أدق .. فقد يجىء اليوم ويتناول الغذاء فى جناحها !!

وعادت « الحبشية » لإرضاء لسيدتها .. وأغلقت هى الباب .. واندفعت إلى الداخل .. فنقلت إليه الأخبار ، وفتحت له « باب الأمير » فانطلق منه ، وتبعته ببصرها فلما غاب فى الدهليز .. أغلقت خلفه ، وكأنها تغلق نافذة فتحت فى قلبها بلا موعد ..!!

مضى وهو كله ثقة من أنه سوف ينجح فى مهمته .. إنه لو خرج من القصر فسوف يذهب إلى « البساتين » ثم يدبر طريقة ما لكى يعبر النيل .. ثم يسافر إلى الصعيد .. لكنه ما كاد يدخل حظيرة الخيول .. حتى فوجئ بثلة من الجنود يتصايحون وهم يحيطون به .. فلم يقاوم .. وأخذ على أن يركب جواداً .. وساروا به إلى « القلعة » .. فلما مثل بين يدى « الباشا » سأله عن سبب هروبه .. فقال وهو ثابت الجنان .. إنه كان يدفع ديناً لأحدهم عليه .. اقترضه منه قبل أن يسافر الصعيد مع « مراد بك » .. وخشى أن يموت قبل أن يدفعه !!..

فتفرس « الباشا » فيه وقال .. كيف فكرت فى أننا سوف نقتلك ؟.. أليس لنا رهائن
عند « مراد بك » .. فقط سوف نحبسكم .. حتى نرى ماذا سيفعل العصاة برسلنا الذين
عندهم !!..

ومضى مع الخراس إلى السجن ، وهو يشعر أنه قد انتصر ..!!

★ ★ ★

الحريم أيام المماليك



الشفق الأسود

الشفق الأسود

« * القاهرة تذرف دمعها .. لا ندرى إن كانت تبكى معها أم تبكى لها .. حتى لغروب .. يبكى على قمم الدروب يستعطف الشفق الدروب .. الذى يخضب أعناق المآذن بالشحوب .. والفتاة ترمق الظلمة ، وهى تزحف على كل شىء حولها .. والعيون تحاصرها .. تجلدها .. تطلب منها الجواب .. تهمس فى فحيح الثعابين .. نعمان بك » جاء يخطبك .. فماذا تقولين ؟..

وأنت تعرفينه جيدا .. فقد كان من كبار ممالك « الألفى بك » .. والألفى كان من ممالك والدك « إبراهيم بك » .. والجميع على بابك ينتظرون البشرى فى جوابك .

وتدير « زينب » رأسها تقرأ المكتوب على صفحات الوجوه .. ليس بينهم من يشعر بالذى يصطرع فى أعماقها .. لو أنهم أحسوا ما هرعوا إليها .. يحملون دليل لإذلال المشاعر .. يريدون منها أن تكون عروسا .. ووالدها فى أقصى الصعيد .. يحيا بعيدا عن عرينه .. بعيدا .. مقصى .. لا يملك أن يحىء إلى حريمه .. مهدر الدم .. مضيع .. نهبت دياره .. فانتقلت وحريم والدها .. إلى قصر قديم سيده تركى لقيم تولى شأنهن .. يستضيفهن شكلا ويسجنهن فعلا .. يساوم عليهن الأمراء الذين فروا إلى الصعيد ، على رأسهم « إبراهيم بك ومراد بك » إعلانا لرفضهم ولايته وخروجا على طاعته .. فهم لا يرون فيه إلا طاغية .. ولا يرون فيه إلا جنديا تركيا .. يستعين بالجنود الأرنؤوط .. أما هما ف قادة « الممالك المصرية » .. الذين نشأوا فى مصر ، وكبروا وتقلبوا فى وظائفها ، ولا يعرفون لهم وطنا غيرها ..!!

استبطأ أحد الواقفين ردها .. فقال يعزز العرض المطروح عليها .. إن « أحمد بك الألفى » رفيق « نعمان بك » وزميله .. كليهما من ممالك « الألفى بك » قد تقدم « عديلة هانم » شقيقتكم ، وعقد قرانه عليها ، وقد تقرر سفرهما ، وآخرين فى بعثة صلح إلى الوجه القبلى .. يحملون ما يرضه « الباشا الوالى » من شروط ، وقد طلب « نعمان بك » من الوالى .. أن يكون الثمن هو زواجه من « زينب » بنت « إبراهيم بك » ووافقه « الباشا » .. ونزلت شقيقتكم « عديلة » على رأى الباشا .. فماذا عساك تقولين ؟ سوى أن تجيبى بنعم ، وترفعى شكواك إلى « الباشا » الوالى .. الذى يستر الأعراض ، ويزوج الحرائر بالأحرار .. و .. و ..

كان الرجل يتكلم ، وكلماته تتساقط على رأسها .. كأنه يدقها بمطرقة من حديد !!
فجأة عجزت عن الصمت الذى كانت تلوذ به .. ضاعت مقاومتها التى كانت تتمسك
بها .. فصاحت صارخة .. كفى .. كفى ..!

تفجر الذعر يجتاح الذين يحيطون بها .. ماذا يقولون لهذا المملوك المطرود الذى
وعده « محمد على باشا » .. لو أختها لم توافق .. لو أن قرانها لم يعقد .. لكن الأولى
وافقت .. قد تكون أدركت الحقيقة .. استطاعت أن تعرف بذكاائها .. أن المقاومة
لا تجدى .. أن الرجال ، وحملة السيوف أحنوا هماماتهم .. وقبلوا ما يفرضه عليهم
« محمد على باشا » ، والذين لم يقبلوا فروا إلى الصعيد .. وهى فتاة فنادا تفعل لو أنها
رفضت ..؟!

وتقدم الخصى « لاطوغلى أغا » كبير بعثة الوكالة التى جاءت تسألها الرد ... تجاوز
الخمسين ... مثقل بالتجارب ... فيه دهاء الساسة وذكاء التجار .. وعلى ملامحه حنان
استحضره .. يبنى به كسب الموقف قال وهو يبذل عطفه من جوانحه .. ويغضى نبرته
العنيفة بابتسامة صفراء كزبدة على خبز جاف وهو يقول لها :

« زينب » ابنتى أنا أسير فضلكم وريب نعمة والدكم العظيم .. لكن الليالى
القاسية .. لا يغلبها إلا من يرضى بها .. والعاصفة تقتلع من يقف فى وجهها .. أما من
يحنى رأسه لها فإنها تمر دون أن تصيبه بأذى ولو أنى أعرف عيبا فى « نعمان بك »
ما قبلت أن أكون رسوله إليك ..!

وأصابها حديثه فى أنحائها .. دس السم فى عروقها ملأ قلبها وضاعف إحساسها
بالقهر بالانسحاق بالتلاشى لا تعترض على الأشخاص .. لا ترفض « نعمان » أو فلاناً
إنها ترفض أن تتزوج بهذه الطريقة .. أن تكون أجرا أو هدية أو مكافأة يمكن أن يمنحها
« محمد على » لمن يريد فهى ليست جارية وليست خلعة يخلعها الباشا على من يريد
وهى أيضا حرة ابنة « إبراهيم بك » ولها ولن تتزوج إلا بموافقة ولن تعترف بولاية أحد
عليها غيره .. فالباشا والى على من قبلوا ولايته .. أما والدها فلم يقبل وإلا لما سافر إلى
الصعيد وهى على مذهب والدها .. حتى لو ظلت فى القاهرة ..!! وحملت فى
الخصى ، وحملت فيها ثم قالت فى أنفة .. لن أرفض ولن أقبل .. وليس لى من الأمر
شئ .. إن كان « نعمان بك » موفداً فى سفارة صلح إلى أبى من قبل الباشا فليحصل
على موافقته .. فهو وحده الذى يملك أمرى .. ولا ترضينى ولاية غيره .. والحره
لا تعصى والدها ..!

ألقت كلماتها أحجارا فى لجة الصمت .. إنه فى دوائر .. لا أحد استطاع أن

يعلق ، كلماتها حادة كالسيف .. تحدثهم أن يلوموها أو يردوا على جوابها ورفع الخصى وجهه وأطال النظر إليها وكان في الوفد أحد المشايخ اهتز قائلاً .. القول ما قالت « زينب » .

انسحب الوفد .. تسللوا كأنهم ضبطوا متلبسين بذنب .. بعضهم أحس أنه يسىء إلى رب نعمته السابق يتزلف بالإساءة لابنته إلى الوالى الجديد .. والذين جاءوا إليه يحملون الولاء بعد أن قضى « الألفى بك » نجه .. مقهوراً من تخلى أمراء الصعيد عنه فلما ورثه فى مماليكه « شاهين بك » كبير مماليكه انحاز إلى « محمد على باشا » وخذعه معسول الكلام وتحقيق بعض الأمانى من استقرار فى المحروسة والتلويح بالمناصب والإقطاعات .. إذا ما نجح مماليكه فى سفارة صلح مع « مراد بك وإبراهيم بك » .. فيعودا برجالهما إلى القاهرة .. ولم يكن أحد يستطيع أن يتنبأ بالذى يدبره الباشا الخبيث للمماليك المصريين .. الذين ينعون عليه أنه تركى من الأرناؤوط وأنهم أحق منه وأن أعيان البلاد الذين بايعوه كانوا على جانب من الغفلة .. إلى جانب يأسهم من معارك المماليك المستمرة ضد بعضهم .

تجمع أعضاء الوفد خارج القصر الذى تنزل به « زينب » تشاوروا فى الأمر .. أيهم يحمل الرد إلى المملوك « نعمان بك » وحمل الخصى على الشيخ عضو الوفد .. وقال له إنه هو الذى .. أطلق لسانه يستصوب ما فعلته « زينب » فليتقدم ويقنع المملوك بأن القول ما قالت « زينب » وطار قلب الشيخ شعاعاً من الهلع .. وانحنى يقبل يد الخصى .. لكنه أصر على أن يدفع به .. فإما أن يقتله « نعمان بك » وإما أن يجلد به وإما أن يلقي به فى السجن .. !!

وعادت « زينب » إلى حزنها .. غاصت إلى العمق فى همها .. أهانت على الناس إلى هذا الحد ؟ وهل هانت أيضاً على نفسها ؟ وهل يمكن لنواكب السماء .. أن تداس بالأقدام إذا سقطت على الأرض ؟.. ولابد أن « عديلة » شقيقتها عقدوا قرانها عنوة أو لعلها أعجبت « بأحمد بك الألفى » وحتى لو كان ذلك حقيقة .. كان فى وسعها أن ترفض حتى تحصل على موافقة والدها .. ولكن .. هى فعلت عين الصواب .. فهى لا تفعل إلا الصواب .. وإذا عادوا يسألونها تكون كشقيقتها .. لديها ما تقوله ففى الكف الواحدة خمسة أصابع ، وليس بها إصبع يشبه الآخر !

وجاءتها الجارية الحبشية .. اقتحمت عليها مخدعها .. كانت مذعورة .. مذهولة .. قالت لها .. سيدتى أوثقة أنه لا أحد يسمعا ؟.. أجازف الآن بحياتى .. وهى رخيصة فى سبيلك .. بالأمس ، وفى قلب مصر « نعمان بك » سمعته يهدر كالجمل .. أقسم أن يحطم كبرياءك ، وأن ينزل مقامك .. بأن يتقدم إلى « الوالى » .. يستأذنه فى أن يستيحيك مع ما بقى من أموال أبيك .. غنيمة له . مكافأة على إخلاصه ، وانتمائه

الأخير .. و « الوالى » لن يرفض له طلبا .. وأنا يحزننى أن يكون هذا مصيرك .. فلو أمرتيني أقتل نفسى فداء لك ..!

لا بد من الوصول إلى مخرج .. طال الصمت .. والحيرة تفترس « زينب » .. ودموع الجارية تنحدر ، ودموع « زينب » .. تمسك بها بقية من كبرياء .. لكن قد أسقط فى يدها ..!

امتألت بحب الجارية .. لإخلاصها بدد بعض حزنها .. اتجهت بأفكارها إلى المخلصين .. لمع فى ذهنها « خليل أفندى » أحد كتاب والذها .. والرجل يسكن « الداودية » .. لكن ماذا يمكنه أن يفعل ..؟ هذا إذا قبل أن يفعل .. فقد يمنعه الخوف .. أو يمسك به الحرص على عنقه .. لكن من المؤكد أن الوفاء الذى لديه .. أكبر من خوفه أو خرصه ..!! وقالت للجارية .. أن تذهب إلى « خليل أفندى » .. تبلغه بالورطة التى هى فيها ، وتطلب منه أن يكون على استعداد لاستقبالها بعد الغروب ، وقبل العشاء . على أن تعود الجارية من عنده بعد صلاة العصر .. حتى يمكنها أن تدبر أمرها ..!!

وحينما أدخلوا الجارية على « خليل أفندى » .. قالت له إنها قادمة لأمر هام يتعلق « بزينب هاتم » ابنة « إبراهيم بك » .. توقفت المسيحة فى يده ، وقفزت على ملامحه دهشة مفزعة .. ومسح ما حوله بعينه .. حتى اطمأن إلى أن غلامه خارج الباب لا يسمع .. ومنحها هدية ، وقدرًا من المال . يعبر به عن شكره لها على إخلاصها الرائع لسيدتها !

وعادت الجارية فتسللت إلى القصر .. التقت « بزينب » التى أحست من عيني الجارية .. أن « خليل أفندى » لم يشأ أن يكون أقل وفاء من الجارية .. وطلبت منها « زينب » أن تساعدتها فى ارتداء ملابس مملوك .. أخرجتها من صندوقها .. وحينما صارت شاباً أمرداً رائع الجمال .. لطمت الجارية .. وقالت لها .. إنها تفلت من أيدي الرجال ، لكى تسقط فى أيدي النساء .. وابتسمت « زينب » لتعليق الجارية .. رغم الهموم التى تكتنفها ..! وما كادت غبشة المساء تستحكم .. حتى تسلل شبهان من القصر فى غفلة من الحراس .. وسارا نحو « الداودية » ..!

لم تكن قد مضت ساعات .. فقبل أن يتصفى الليل .. هاجم « نعمان بك » مع ثلة من جنوده قصر الضيافة .. لكن « زينب » كانت قد اختفت .. وجن جنونه ، وعاد إلى قصره يعوى ويصرخ كالكلب المسعور ونادى أنه يدفع مائة كيس أو خمسمائة أو ألفاً لمن يدلّه على مكانها ..!

وحيثما كانت الجارية الحبشية « أُلماظ » .. عائدة .. من بيت « خليل أفندى » ليلا .. داهمها جنود سيدها ، وفتشوها .. بناء على تعليمات صدرت بتفتيش الذين يخرجون أو يدخلون .. وضبطت معها الهدية ، والأموال .. وسيقت إلى « نعمان بك » ليقول كلمته فيها .. عرف بعد تحقيق سريع أنها كانت جارية فى قصر « إبراهيم بك الكبير » ، وعليه فلا بد أن تكون هذه الأموال والهدية ثمننا لاشتراكها فى إخفائها ..! واستمر تعذيب الجارية .. ثلاثة أيام ليل نهار .. لكنها رفضت أن تتكلم حتى أمر بضرب عنقها . فأعدمت دون أن تتكلم !!..

بعد أعوام عرفت « زينب » القصة .. وكانت قد أصبحت زوجة لأحد السناجق فى الصعيد بعد أن لحقت بوالدها هناك وكان أن بنت مسجدا أطلقت عليه اسم « مسجد أُلماظ » .. تخليدا لوفاء هذه الإنسانية الجارية التى تفوقت فى إنسانيتها على الأحرار .. وما زالت بقايا المسجد قائمة فى إحدى قرى محافظة « المنيا » .. لكن القصة لم يعد يعرفها سوى من يقرأ « الجبرتى » !!

★ ★ ★

الحريم أيام المماليك



ليالي الشوق

ليالى الشوق

*** باثت « الجمالية » تنتحب .. يمشى الأسى فى حاراتها ، ويفرض الحزن نفسه على شوارعها .. يفرش مع الظلام كل مساحاتها .. والناس كالأشباح .. يهيمنون فى العتمة .. يصطدمون .. يتهايمسون .. يتناقلون أخبار القادمين .. فقد خرجت حامية الفرنسيين مع قوادها .. الذين اتجهوا إلى « الصالحية » .

ولم يعد فى القاهرة .. سوى بعض المراكز الضعيفة .. فقد أمنوا الاضطرابات ، وظنوا وهما أن المصريين قد استسلموا ..!

ففى ذلك الجزء الأخير من النهار .. أقبل « إبراهيم بك » فى مظاهرة ، ودخل من باب النصر مخترقا « الجمالية » .. ثم تلاه « سليمان أغا » ، « وعثمان كتخدا » الدولة ، وقبل غروب الشمس أقبل « نصوح باشا » فى موكب مهيب .. بصحبة السيد « عمر » نقيب الأشراف ، والسيد « المحرقى » كبير تجار الخروسة ، « وحسن بك الجداوى » ومن رؤساء الممالك .. « الأشقر » « المرأوى » ، « والشرقاوى » ، « وعثمان الخازندار » ، واتجه بعضهم إلى قصوره ، والذين ضربت ديارهم بأيدي الفرنسيين .. آوَاهم السيد « المحرقى » ، ونودى فى الشوارع حى على الجهاد ، ومواجهة الفرنسيين ، والانقضاء على مراكزهم الضعيفة فى القاهرة ، وتجهيز فرقة لمطاردتهم فى « الصالحية » ..!

واهتزت الأفئدة من جديد .. وتحفرت الدماء فى العروق للأخذ بالنار ، وبدت فى كل ركن نذر الحرب ، وارتفعت الأسعار ليلا .. لم ينتظر التجار حتى الصباح .. وكانت رؤوس الناس .. صبرة من « القاهرة » .. آلاف الأفكار التى تناطح بعضها .. الذى يتهبأ للقتال محتسبا وجه الله ، والذى يتأهب لسرقة الشعب لكى يثرى . والذى يجمع الأقوات ليحتكرها ، والذى ينفق ليجهز المقاتلين كالسيد « المحرقى » .. وكل رأس يشغله ألف هم ، وهم ..!

وجاء شفق ذلك النهار كأنه ييشر بغده .. صبغ اللون الأحمر قطعان السحب .. وامتزجت ظلمة الغروب بحمرة الشفق .. فأصبحت داكنة كأكباد تتهرق .. وانطلقت من « درب المسقط » شابة تجاوزت العشرين .. ترتسم اللفه فى عينيها ، وترتعش على ملامحها الرجفة .. لكنها لم تذهب بالسحر الكامن فى العينين .. بل اختفى الفزع من الحدقتين .. العينان فى لون البن .. ضعفا وشجنا ضاعف من الإغراء .. وأضاء جبينها

تحت الشعر الأسود المذهب .. الذى تهبط خصلته ثم تعود .. كطير من الأبنوس ..
يشرب من جدول بلور .. فارحة الطول .. ناهدة الصدر .. لها عنق غزالة من المرمر ..
وفم تندم الكلمة حينما تغادره ..!

سارت إلى « بيت القاضى » تتطلع إلى وجوه العائدين .. تنفرس .. تسأل بعضهم .. لكن الإجابات كانت آمالاً أحياناً بلغة اليأس ، وأخرى يأساً مطحوناً تحت أقدام الرجاء .. الجند وعمال الخدمة ، وكل الذين خرجوا مع المالك ، وفضلوا الفرار على الوقوع فى أيدي الفرنسيين .. قد عادوا معهم .. فهل يمكن أن يكون هو قد عاد ؟.. الشوق يؤكد أنه عاد ، ولكن زملاءه من رجال « إبراهيم بك » .. لا يجيبون بصراحة .. بعضهم يحاول أن يهرب منها ، وبعضهم كان شجاعاً فقال لها إنه لم يره إلا يوم خروجهم من مصر ، وبعضهم قال .. إن « العربان » كانوا قد أغاروا عليهم ، وبعضها لم يره .. وبعضهم قال لها سوف يصل .. وبعضهم قال - وأقسم على قوله - إنه وصل معهم .. ولم يفترق عنه إلا عند « باب النصر » ..

لم تكن وحدها التى خرجت .. تبحث عن « متولى » .. عشرات خرجن .. لكن كل واحدة تبحث عن رجلها .. المصريات اللاتى لا يخرجن خرجن .. طوح بهن القلق المضنى .. خارج البيوت والدور .. فالرجال الذين عادوا .. ملأت بيوتهم الزغاريد .. وملأ نساؤهن القلل ، ووضعنها فى المشربيات وكان ذلك دلالة على أن رب البيت قد وصل ، وانتشرت فى الحارات رائحة الأطعمة الدسمة .. تطبخ للعائدين المحرومين وفاض الانتظار والصبر بالأخريات .. فخرجن يبحثن .. تقول أقدامهن المتعثرة فى الحيرة والاستحياء : أين رجالنا ؟..

أوشكت « زاهية » أن تصل إلى « باب الفتوح » ، ولا أحد تلقت منه الخبر الذى تريده .. الخبر لا يقطع الشك باليقين .. بل ترسب من أقوال الرجال عن الغائب .. ما جعل الغصة تتصاعد .. والرغبة فى البكاء تخنقها .. فقد كان عليها أن تتوقع أنه قد أصيب بمكروه .. لو كان حياً لعاد مع العائدين .. ولو كان مريضاً لعادوا به محمولاً .. فقد عاد بعضهم محمولاً على الدواب .. وإذن فلن يعود « متولى » ورفضت الخاطر السيء .. طردته من رأسها .. لكنه وقف يلح .. فلم يعد غيره ..!! الشوارع مكدسة بالناس ، وخیول تحمل العائدين ، وباعة يصيحون ، وحملة بيارق ، وطبول .. يطوفون الشوارع .. لكنها لم تشعر بكل ذلك .. كأنها تسير وحدها فى صحراء ، فقد استغرقتها الكارثة ..!

عادت والحسرة تحيط بها .. تحتويها فى كف الحيرة .. كرسى الصدمة فى أعماقها .. ضياع الأمل فى العثور على « متولى » ..؟ ودلفت إلى بيت أمها فى « درب المسقط » ، راحست العجز من خطوات ابنتها .. أن اليأس يتعلق بقدميها .. فلم تشأ أن

تسألها .. لكن « زاهية » .. عانقت أمها ، وهى تبكى .. معلنة أن الأمل ضاع فى عودة « متولى » ..؟

وعاد « محروس » شقيقها ، وكان هو الآخر يحاول الوصول من العائدين إلى الحقيقة .. وأعلنت ملامحه عن يأسه .. الذى رفض أن يتكلم عنه .. ولم يتكلم « محروس » .. ألقى نظرة على شقيقته ، وعلى أمه ، واستغرق فى الصمت ..! وكان ذلك كافيا لأن يصب الكارثة فى يقين « زاهية » ..!

بعد يومين أقبل رجل من « الخرنفش » .. عاذ حديثا مع العائدين .. يرتدى ملابس تنم عن الثراء وحينما وقف يسأل عن بيت « متولى » .. تجمع أهل الحارة حوله .. واندفع الرجال يسألونه عن حقيقة « متولى » .. واقتحموا معه الدار رغم عدم استئذانهم من صاحبتهم .. كأنهم يمارسون حقاً من حقوقهم .. وقال الرجل إنه كان صديقاً ورفيقاً « لمتولى » الذى وافاه أجله إثر مرض قصير ، وقد حملة « خاتما » كان فى يده لزوجته لتتأكد من صحة لقائهما ..!

وأطلقت أمها صوتها من عقالها وامتألت البيت بالنساء ، وأخذ أحدهم الضيف إلى بيته فأكرمه ، وقبل أن يجمع الضيف أطراف ثيابه ليمضى .. طلب أن يرى « زاهية » زوجة « متولى » لأن لديه ما يعطيه لها بعد « الخاتم » .. وحينما جاءت حرص على أن يسمع الجميع حوارهم .. فقد أخرج كيسا من الدنانير دفع به إليها .. وهو يقول لها إن حانوته فى « الخرنفش » ، وإنه تحت أمرها ، وفاء لذكرى صديقه « متولى » ..! ومضى دون أن ينتظر شكرها .. لكن أهل الحارة قاموا بالشكر عنها .. وقال « زين » البقال .. إنه يقطع ذراعه .. إذا لم يكن هذا الرجل يضع عينه على « زاهية » ..!

وبعد ثلاثة أيام .. شعرت المراكز الفرنسية التى فى « القاهرة » .. بحركة التعبئة التى يقوم بها العثمانيون ، والمماليك والمصريون .. فهاجموا الأحياء التى تحصنوا فيها .. وردتهم الفئات المرابطة ، واضطربت المدينة ، وشاعت الفوضى فى الشوارع ، وسرت موجة السلب والنهب ، وتحطيم المخازن والحوانيت ، واقتحام البيوت ، وألقى الناس التهم على بعضهم .. فذاك يتصل بالفرنسيين ، وهذا يكاتبهم ، وذلك يحتفظ فى بيته ببعض الجنود .. واختلت الموازين ، والمقاييس ، ولم يسلم من التهم إلا القليل .. وحدث أن أشاع أحد الحاقدين الموتورين عن الشيخ « خليل البكرى » .. أنه يكاتب الفرنسيين ، ويرسل إليهم الأطعمة .. وهجم العامة على بيته .. وفوجئ الشيخ .. ووقف يخطب فيهم .. فأسقطوه ، وخلعوا عمامته ، وقيدوه ، وأخرجوا خلفه حريمه ، وأولاده ، وجروهم إلى « الجمالية » .. حافيا مكشوف الرأس .. يتلقى اللعنات من جانبي الطريق .. وجيء به إلى « عثمان كتحدا » .. وكان فى « الجمالية » هو و « نصوح باشا » نهاية مطاف المظاهرات .. ومقل آمالهم فى الخلاص من الفرنسيين ..! وهبط « عثمان

كتخذنا « فأنقذ « الشيخ البكرى » ، وأكرمه مع نسائه وأهله ، واعتذر له .. فكل من يقبض على جاسوس أو يقتل فرنسيا أو يحصل على معلومات يتقدم بها إلى قيادة المعاونة التى شكلت من الاثنين ، « وإبراهيم بك » لكن الثالث كان مع رجاله لا يخشى كثيرا .. حيث عسكر فى « دير الطين » عند مصر القديمة !..

وفوجئت القيادة برجل مغربى يتكلم اللهجة المصرية يقود جماعة من الإنكشارية ، والمغاربة والمصريين المرابطين فى « خان الخليلى » ، وهو يسيطر على الخط كله .. حتى « الخرنفش » حيث يأتمر الجميع بأوامره ، ويسلحهم بالنبايت ، والبارود .. الذى يستولون عليه من الفرنسيين .. وكان هو الذى حرض على « الشيخ البكرى » .. فلما جىء به اعتذر عن الفوضى التى وقعت من رجاله ، وأعيد إلى مكانه .. لأن الجميع كانوا فى حاجة إلى كل الجهود .. وبلغ من نشاط الرجل المغربى أن « نصوح باشا » و « عثمان كتحدا » أرغما على مد رجاله بالعدد والآلات التى طلبها .. وأناطوا به حماية بعض الخطوط ، وأنشأ له ديوانا « بالخرنفش » ينافس ديوان أى باشا من الباشوات !..

وأحسست « زاهية » ، أنها فى حاجة إلى أن تسأل الرجل الذى نقل إليها الخبر .. وحمل إليها « خاتم » « متولى » .. كان لابد أن تعرف ماهو المرض الذى أصابه ، وكم يوما بقى مريضا .. وهل دفن هناك .. ؟ وهل يعرف قبره أم لا .. ؟ .. واصطبحت شقيقها « محروس » ، وخرجت تسعى إلى « الخرنفش » ، وهناك فوجىء « محروس » .. بأنه صاحب هيلمان ، وأنه هو نفسه المغربى الذى يتحدث عنه الناس .. وأدخلوهما إلى ديوانه وقال لهما .. إنه دفنه بيده ، وإنه مات متأثرا بالحمى ، وفى جراحة وقحة .. خطب « زاهية » من « محروس » .. مما أفرعها ، وحرك دموعها فى عينيها !..

أسقط فى يد « محروس » ، واستولت الخيرة على « زاهية » ، ونظر كلاهما إلى ماحولهما .. فإذا هما بين يدي أحقق طاغية .. يحيط به جماعة من المريدين الذين فقدوا عقولهم أو أفقدهم إياها .. فهم يؤمنون أنه من الواصلين .. الذين ملكوا أسرار الدنيا والآخرة .. وأنه إذا أشار بشيء فذلك أمر واجب التنفيذ .. وحاول « محروس » أن يعتذر أو يطلب مهلة للتفكير .. فقد توارت « زاهية » خلفه ، وراحت تهمس إليه ألا يوافق .. إلا أن « المغربى » التفت إليها .. ثم همهم طويلا .. ثم قال لها .. أنت موعودة .. مكتوبة على اسمى وأنت فى بطن أمك .. وليس لك الخيار .. ما قولك ؟!..

وانطلقت أصوات المريدين المحيطة به كخلية نحل .. يصيحون ، ولم يستمع أحد إلى همهمها .. وأرادت أن تعلن رفضها عمليا ، فوقفت غاضبة تريد الخروج ، وهب معها شقيقه . لكن الرجل أشار لمريديه .. فخطفوها .. فى لحظة اختفت ووجد « محروس » نفسه وحده .. فحاول الهجوم .. لكنه لم يعرف ماذا حدث .. تلاشى الوجود من

حوله .. وتلاشى هو من الوجود .. ثم أفاق فى بيته عند أمه .. التى قالت له .. إن جماعة جاءوا به محمولا ، وقالوا لها إن الفرنسييس ضربوه ، وأعطوها مائة دينار .. قالوا إنهم وجدوها معه ..! ولما سألتهم عن « زاهية » قالوا لها إنهم لا يعرفون شيئا .. فأيقنت الأم أن الفرنسييس خطفوها .. لكن « محروسا » روى لها الحقيقة ، وهو يشعر بالخل .. وفوجئ بوالدته تقول إن الله عوضها خيرا ، وإن « متولى » لو عاش ألف سنة . لما أصبح فى ثروة هذا الرجل ومكانته ..! وخرجت إلى « الخرنفش » لتطمئن على « زاهية » فى بيتها الجديد ..! واستقبلها رجال « المغربى » ، وقدموها إليه .. فرحب بها ، وقبلت يده فأعطاهها كيسا من الدنانير ، وطلب أن يدخلوها عند ابنتها فى الحريم .. وامتلأت المرأة فخرا ، وعجبت من أمر ابنتها « محروس » الذى يبدو أنه غير راض .. عن النعمة التى أصابت شقيقته .. فهو يتكلم فى حق « الرجل الباشا » كلاما سيئا .. هذا رجل ملك الدنيا والدين .. لقد انفتحت ليلة القدر أمام « زاهية » ..!

ورأت الرفاهية ، والعز الذى تنعم فيهما « زاهية » ، ودخلت على ابنتها ، وهى بين جاريات يذلكنها ، يزينها ، ويقمن بخدمتها ، وهى تسبح فى العطور والبخور ، وكأنها أميرة من أميرات ألف ليلة وليلة .. وألقت « زاهية » بنفسها على صدر أمها ، وانهملت دموعها .. وهذأت الأم من روعها .. وجرى حديث طويل بين الأم وابنتها ..!!

لم ينته الأسبوع وفى الليلة الأخيرة منه ، وصل إلى باب النصر جندى سلطانى .. دفعوا به إلى « نصح باشا » .. حيث أخبره بأن « حسن بك » ، وسليم بك أبو دياب « حاصرا أحد قواد الفرنسييس فى « القرنة » مع رجاله ، وأرغموهم على التسليم .. لكن نجدة وصلت إليهم ، وشتتوا قوات المصريين ، والعثمانيين ، وأن « مراد بك » خشى أن يشتبك مع الفرنسييس .. لما رآه من كثرة عددهم ، وعونهم .. فأخذ رجاله ، وأصبح عائدا ، ولم يدخل « القاهرة » .. بل سار من خلف الجبل إلى « دير الطين » ليلتحق « إبراهيم بك » هناك ، وأن الفرنسييس قادمون من الشرق ، فى فرق جرارة لتأكيد وجودهم ، ودعم مركزهم .. وأرسل « الباشا » على الفور يستدعى « عثمان بك كتمخدا » ، وناقشا الموقف ، وقررا أن تواجه « المحروسة » الفرنسييس بقلب رجل واحد .. فيدافع « عثمان » بك الأشقر عن « باب اللوق والمدابغ » ، وأن يعسكر « عثمان بك أبو طبل » فى المحجر « ومحمد بك المبدول » عند « الشيخ ريحان » و « كاشف أيوب » وجماعته عند « الناصرية » . ويكمن « مصطفى الكبير بك » عند قناطر « السباع » ، و « سليمان المحمودى بك » فى سوق السلاح ، وأبناء القرافة ، والحسينية ، والعطوف عند باب النصر ، وأن تعمل مصانع البارود فى « الخرنفش » بكل قوتها ، ويجرى إصلاح المدافع القديمة للارتفاع بها ..!

ونودى على الجهاد من جديد ، وحرم النوم إلا على المريض ، والعاجز ..! واندفع أهل « بولاق » بقيادة الحاج « مصطفى الباشيتلى » فى جنون .. فحملوا النبائيت ،

والعصى ، والفؤوس ، وهجموا على خيام الفرنسيين المرابطة على النيل .. فقتلوا بعضهم ، وفر البعض الآخر ، ونهبوا ما كان فى الخيام .. ثم حطمو المخازن ، واستولوا على الغلال ، وعلف المواشى ، وأشعلوا النار فيما فشلوا فى نقله ..!

أفلح المصريون فى تصفية الجيوب الفرنسية التى كانت فى « المحروسة » .. واستخفهم النصر فراحوا يتظاهرون هنا وهناك ، ولكن الكبار وضعوا أيديهم على قلوبهم .. فالقادمون من الشرق يواصلون الزحف ، والعامّة لا يدركون ذلك .. وهم رغم قدومهم من سفر .. إلا أن ما يملكون من مدافع حديثة ، وأسلحة ، وجنود مدربين وقادة خاضعين للأوامر فى وسعهم أن يفتحوا المدينة فى ساعات ، وأن يقيموا المشائى ، والمحاکمات لكل من أسهم فى الثورة التى حدثت ضدهم ..!

وصلت طلائع الفرنسيين ، وتسلموا القاهرة حيا بعد حى .. القنابل ترمى بها البيوت دون تمييز ، والناس يأوون إلى الحواصل ، والطوايق الأرضية والشوارع خلّت من الناس ، والحرائق تشتعل فى كل مكان ، وفى كل حارة .. نسوة يلطمن الحدود على عزيز .. زوج أو شقيق أو أب ..؟

عشرة أيام متوالية .. سقطت بعدها كل الأحياء ، وقبض الفرنسيين على الحاج مصطفى الباشيتلى ، وفرضوا على أهل بولاق عشرة آلاف ريال غرامة خصصوها لجمعها تسعة أشخاص ، وأخرجوا الزعيم « الباشيتلى » عاريا حافيا مكشوف الرأس ، وقالوا لأهل « بولاق » .. إنه السبب فى كل ما حدث لهم ، وإن القائد الفرنسى قدمه لهم لينتقموا منه بأيديهم .. ولم يصدق البطل أن الذين كانوا يهتفون باسمه بالأمس هم الذين يقتلونه اليوم .. وانهالت عليه العصي من حثالة القوم ، فأغمض عينيه ، واستقبل الموت .. حزينا على ما أصاب الناس فى رجولتهم .. !

وأصر الفرنسيين على خروج « العسكر العثمانية » من « المحروسة » .. وإلا أنهم لن يرفعوا أيديهم ، ولن يقبلوا هدنة .. وكان وفد المفاوضات مكونا من « عثمان البرديس » ، و « كاشف رستم » وكلاهما من رجال « مراد بك » ، وحاولا إقناع « الباشا » والعساكر العثمانية بالخروج من المحروسة حقنا للدماء ، ورحمة بأرزاق الناس التى توقفت .. فقد صمم الفرنسيين على حرق « المحروسة » إذا أصر العثمانية على البقاء ..!

وأرسل كبير الفرنسيين يطلب « الشيخ الشرقاوى » ، و « الشيخ المهدي » ، والشيخ « سليمان الفيومى » والشيخ « موسى السرسى » ، فلما التقى بهم قال لهم ، إنه على استعداد لوقف القتال على شرط أن يدخل فى طاعته كل الممالك ، والأمراء ، وأن يرحل من يرا .. الحيل ، ومن يبقى يسلم سلاحه ..!

وعاد المشايخ يقولون ذلك .. لكن العامة تجمعوا بهم ، ولعنوهم ، واتهموهم بأنهم قبضوا الدنانير .. لكن كبار البلد كالسيد « المحروقي » ، ومشايخ الأزهر .. قبلوا الحل من أجل حقن الدماء .. لكن بعض الدهماء رفضوا وأصروا على الرفض !..

لكن حارة « درب المسمط » انشغلت عن كل هذا .. أخرجها من الهول الذى تعانیه كجزء من « القاهرة » .. أن « متولى » قد عاد .. « متولى » عاد ، وضربت أم « زاهية » على صدرها ، انعقد لسانها فى فمها ، وماتت أشياء كثيرة فى حلقها .. واجتمع أهل الحارة يستمعون إلى قصته .. لقد نشروا فى الصحراء .. أباد الفرنسيين الجماعة التى كان بها مع رجال « إبراهيم بك » عند صحراء « القرنة » .. ولم يجد معه سوى جندى مغربى وكان هو الآخر فارا .. وأنهكهما الظمأ .. وقبل أن يوشكا على الهلاك . عثر على بئر مغطى بحجر .. فأدركا أنه يستعمل ، وزحزحا الحجر ، وخلع ملبسه وهبط فى البئر ، واستطاع أن يشرب ، وأن يملأ للمغربى ما يشرب منه .. ولكنه فوجئ به بعدها يلقي إليه بالحبل ، ويفلق فوهة البئر بالحجر .. فقد طمع فيما كان معه من دنانير ، وفى الخاتم .. وبعد أكثر من يومين .. جاء بعض الرعاة يسقون .. فأخرجوه ، وظل عندهم إلى أن استطاع أن يصل !..

وكانت « القاهرة » كلها قد طلبت مبدأ الهدنة إلا هذا « المغربى » الذى ظل يحرض الناس ، ويخطب فيهم .. أن المشايخ باعوهم للفرنسيين ، وتصدى له أحدهم فصاح فيه أن الخراب أحاط بالبلد ، وأن الأرزاق توقفت ، والناس فى « الناصرية » أكلوا ميتة ، وذبحوا الحمير .. فماذا يريد من البلد .. ؟ ثم إنه « مغربى » ، وليس من أبناء البلد .. فلماذا كل هذا الحماس .. وحاول « المغربى » أن يقاطعه ، وأن يحرض رجاله ضده .. لكن الشيخ صاح .. وهو يخرج صحيفة مطويةقرأها بين الناس ، وقال هذه الرسالة بخط الشيخ إلى الفرنسيين .. إنه ضالع معهم ، وهو يعمل جاسوسا لهم ، وقد ارتدى العمة والجبة والقفطان ليخدعكم .. أما أصله فهو جندى فى الجيش الفرنسى .. وجن جنون أتباعه فهجموا عليه ، فطرحوه أرضا وجزوا عنقه .. قبل أن يصل إليه « متولى » بخطوات وأسرع الجميع إلى قصره الذى اتخذته فى « الخرنفش » لكن « متولى » سبقهم فصعد إلى الحرم ، وخرت « زاهية » بين يديه مغشيا عليها .. فحملها إلى بيت والدتها .. وحينما أفاقت .. أغمضت عينيها مرة أخرى .. فهى لا تصدق ما حدث .. وسقط الزمن من حسابها .. حينما تقلبت فى فراشها .. وقالت : رأيت فى نومي يامتولى أنك لم تعد وأنه حدث وحدث وأسكتها « متولى » بقبلة طويلة على فمها .. !!

الحرية أيام المماليك



الحب والمملوك

الحب .. و .. الملوك

تهز أعماقه .. تمشى فى كيانه .. فالذى لا شك فيه .. أن شيئاً ضخماً يقع الآن فى حياته .. يرفعه من الحضيض إلى القمة .. بالأمس فقط أتيح له أن يدخل على خليفة المسلمين .. سلطان البرين والبحرين .. وأن يجثو على قدميه بين يديه .. ويقبل ركبته الشريفتين ، وهو يرفع إليه مفتاح « المدينة » .

ومفتاح « مكة » فوق صحائف من الذهب والفضة ..! لقد جاء بهما « الباشا الوالى » محمد على .. بعد أن أخضع الأعداء واصطحب بعضهم أسرى .. ثم اختاره دون الماليك .. ليحملها إلى « إستانبول » .. وذلك لأن الباشا يؤثره على الآخرين ، ويثق به إلى حد بعيد ..! فقد تلقاه هدية من قاضى قضاة مصر ...!

إن الشرف الذى ناله سوف يحسده عليه جميع الماليك ، والأمراء .. فهو لم يعد الملوك « لطيف » ، وإنما منذ الأمس صار « لطيف باشا » .. بعد الإنعام عليه بالباشوية ، وهى سوف تجعله يزهو على كل الأمراء والماليك ، وتعطيه الحق فى أن يتقلد أرفع الوظائف التى تلى « الباشا الوالى » ، وتزيد من مخصصاته ، وترفع عدد أتباعه ، وقصوره وجواريه ..!

ولاحت منه نظرة إلى حملة الحجامر ، والمباخر ، وكبار رجال الدولة ، والأعيان الذين أقبلوا يحيطون به ليكون لهم شرف استقباله بأمر السلطان ، وفرق الجنود ، والحيازة ، والطبول والمزامير التى تتقدمه ، وهو يسير كالفاتح .. يحمل « المفتاحين الشريفين » والجماهير تهلل وتكبر على الجانبين وتشير إليه ، وهو يشق أكبر شوارع « إستانبول » .. إن « الباشا » نفسه لم يكتب له كل هذا الشرف !!..

إن « الباشا » أشعل حرب الحجاز .. لتكون خيراً وبركة على « لطيف » وحده دون البشر جميعاً .. ذلك لأنه الموعد الذى يستحق ذلك الشرف .. ألم يقل له « حسن اللبالبى » وهو يقرأ له الفنجال ... أنه سيكون عظيماً كالشمس ، وأنه سوف يلمس النصر بيديه .. وقد نال بالأمس شرف ملازمة السلطان ..! ألم يقل له منذ شهرين فى آخر مرة رآه فيها .. « أبشر يا لطيف بك .. لقد آن أوانك وحان موعدك .. فكن على بصيرة من أمرك ولا تنسنا » ..!

وحيثما خلا إلى نفسه فى جناح قصر الضيافة الذى أعد له .. قام فارتدى خلعة السلطان عليه ، وتمنطق بوشاح الباشوية ، ورشق فى القلنسوة السلطانية .. الجواهر التى أهديت إليه .. ثم مشى يخطا فى الغرفة ، ويطيل النظر إلى نفسه فى المرآة .. كم يمتنى لو أن « ياقوتة » جاريته رآته وهو فى الموكب .. « ياقوتة » التى هكت بكل دموعها ، وهى تودعه .. لو أنها كانت تعلم ، ولو كان فى وسعه لصحبها لكى ترى « إستمبول » كلها وهى تستقبله ..!

لكنه ماله لا يتذكر سواها ..؟ ومن أحق منها .. أليست هى الإنسانية الوحيدة التى علمت قلبه كيف يخفق بالحب .. كل الجوارى اللاتى عبرن حياته قبل ذلك .. لم يفعلن به ما فعلته هى .. أقصى من حازت رضاه أمسك بها أسبوعا .. ثم نسيها ، وإما أن تباع أو تهدى أو تستبدل .. إلا « ياقوتة » فقد علمته مالم يكن فى الإمكان أن يتعلمه .. علمته أن يغوص فى أعماق من يحبه ، وأن يترك محبوبه يغوص فيه .. جعلته يؤمن بأن الحب أحاسيس متجددة ، ورغبة فيها مشاركة أبدية الأمد بلا نهاية .. وقد كان لا يعرف إلا السطحية فى الرغبات .. فلا هو ولا من على شاكلته من المماليك .. كان فى استطاعتهم أن يحيوا .. فقد جلبوا صغارا ، وأجبروا على نسيان آبائهم وأمهاتهم ، وأطلقوا فى رحاب الأمراء .. يعيشون فى قطعان .. يلقون كل رعاية ممتازة ، ويتعلمون فنون القتال ، ويدرسون بالقدر الذى يعدهم للمهام المناطة بهم .. لا حب ، ولا عطف ، ولا لمسة حب فى حياتهم .. فالأمراء يصنعون منهم قتلة ، وقادة حرب ، وفى سبيل ذلك يخلون قلوبهم من إنسانيتهم شيئا فشيئا .. والحب يبدأ بالإنسان ، وينتهى به .. وقد زوى الإنسان وذبل فى ضمير هؤلاء المماليك ، ولم يعد له وجود ..!

« ياقوتة » صنعت معجزة إذ أعادت إليه إنسانيته .. هو الآن ، ورغم البعد الذى يفصل بينهما برا وبحرا ، ومكانا ، لا يضيره أن يعترف بحبها .. كم هو مشوق إليها الآن — يمتنى لو رآته فى النعمة السلطانية — فهى الوحيدة التى يريد أن تشاركه هذه الفرصة ..!

وذهب ليلاً فاستأذن فى العودة من السلطان ، وأصدر أمراً ، إلى المركب لتكون جاهزة فى الغد .. وفى ٢٨ مارس ١٨١٣ وصل إلى القاهرة ، وشاعت أخبار النعمة ، والخلع السلطانية ، ورتبة « الباشوية » وأوغر ذلك صدور المماليك عليه ، والأمراء .. لكن إحساس المماليك بأنهم من جنسه وطبقته جعل حقدهم عليه أقل من الأمراء .. بل إن بعضهم كان يتيه على الأمراء بما حصل عليه مملوك مثلهم من الشرف ..!

« ياقوتة » استقبلته فى جناحها .. ظلت تعانقه ، وتتركة لتتحقق فيه .. ثم تعاود عناقه ، وهى لا تصدق أنه عاد إليها كان فى عينيها أكثر من عشق ، وأكثر من حب . كانت ترى فيه أهلها الذين لا تعرفهم ، وترى فيه عصمتها من الضياع ، وترى فيه

مستقبلها المجهول .. تعانقه ، وتهيم فى سمائه وهو بين يديها .. سعيدة فوق سعادة البشر .. لأنها علمته الحب ، واعترف لها به ، أحست بشوقه فى نظراته ، وهو يملأ بصره منها .. شوق حار .. طاهر .. صادق كلبن الأم فى فم الطفل .. !

وهمست « ياقوتة » فى أذنه وهى ترقيه بالبخور .. أن حساده أصبحوا أكثر من أحبابه .. وأنها ترجوه وتتوسل إليه أن يحذر « الكتخدا » .. لكنه رmqها بنظرة صارمة متسائلة ، وهو يضع القلنسوة على رأسه .. فغضت طرفها ، وهى تقول .. إنها لاحظت أن جوارى « الكتخدا » ينظرون إليها بحسد ، ويتهامسن همسا مسموعا عن النعيم الذى أصابه فجأة .. كان ذلك عندما التقت بهن فى الحمام فى الأسبوع الماضى ..!

لكن « لطيف باشا » لم يأبه .. كان واثقا من عطف « الباشا » الوالى . ومنذ أن عاد من « إستانبول » ، وهو يعامل كل كبار موظفى الدولة بالازدراء .. فهو « باشا » رغم أنوفهم جميعا ، وهم أذلوه ، وأذلوا المماليك بما فيه الكفاية .. لن يعامل أى أمير إلا بالاحتقار الذى يستحقه .. وسوف يجعل من المماليك عصبته التى يعتمد عليها ، ويعتز بها ..!

وانتهزها « الكتخدا » فرصة ، ونقل إلى « الباشا » .. أن « لطيف » يريد من رجال الدولة أن يعاملوه معاملة « الباشوات » ، وأنه يستعلى عليهم ، وأنه يقرب أبناء جنسه من المماليك ، ويشترى قلوبهم بالبدخ عليهم ، ولا يستبعد أن يكون فى سبيله إلى تدير أمر من الأمور .. فمنذ أن عاد من « إستانبول » ، وهو يتصرف كأن السلطان أعطاه فرمانا بالبلاد .. وبصق « الباشا » ، ولم يزد لصغر شأن ذلك « اللطيف » إلا أن قال « للكتخدا » .. « اجعله تحت بصرك وتولاه » ..!

سافر « الباشا » إلى الصعيد ، وترك الأمور « حبالى » توشك على وضع الحوادث الضخام .. وتقدم « لطيف باشا » إلى الديوان ، وكبار الدولة فى اجتماع ، وهو من بينهم .. فطلب زيادة فى « أعلاف » خيوله ، ورواتب رجاله ، ومخصصات قصره .. فتصدى « الكتخدا » له ، وأبدى أن صاحب البلاد على سفر ، وأنه لا يستطيع أن يوافق على مثل هذا الطلب .. وكبر على « لطيف » أن يجيبه « للكتخدا » بهذه الإجابة .. فرد عليه بكلام غليظ حقره فيه .. فرد عليه « الكتخدا » التحية بأحسن منها .. فغادر المجلس ، وهو يرمى الجميع بالجهل والاحتقار ..!

وما كاد يصل إلى بيته .. حتى أرسل ينادى فى المماليك .. أن يهرعوا إليها بخيولهم ، وأسلحتهم .. لإجراء تدريبات السباق .. ونقلت عيون « الكتخدا » التى بثه لرصد حركاته الخبر إليه .. فأسرع بإحضار كبير المماليك يسأله خبر .. الاستعدادات عند كل المماليك ، وفى كل الجوقات .. وقال كبيرهم .. إن « لطيف باشا » طلب ذلك

لتدريبات السباق ، والمزاريق ، وقفز الحواجز التي تجرى بين الحين والحين .. لكن « الكتخدا » قال إن موعد التدريبات لم يحن بعد .. وإن عليهم أن يعودوا « كما كانوا » فلا يلبي أحد دعوة « لطيف باشا » .

وحانت الفرصة « للكتخدا » أسرع بعقد المجلس من كبار رجال الدولة ، ومن بينهم « إسماعيل باشا » ابن الوالى الباشا « محمد على » ، و « دبوس بك » و « أغلى » ، و « صالح بك السلحدار » و « أحمد بك الخازندار » ، وانتزع قرارا باستدعائه لسؤاله عن سر هذه الحركات المريبة .. فذهب إليه « دبوس بك » يستدعيه لكنه رفض أن يغادر قصره ، وأرسل يقول إنه لن يذهب إلى الديوان أبدا حتى يعود « الباشا » .. وكان المجلس لم ينفض فى انتظار عودة « دبوس بك » وعلى « لطيف باشا » الطاعة .. والمثل بين يدي المجلس أو الخروج « منقياً » من البلد الآن وفوراً .. فلما عاد إليه « دبوس بك » ، ليبلغه القرار الأخير .. أجاب بأنه سوف يخرج فى الصباح ، ويغادر القاهرة .. لكنه يطلب الأمان .. حتى لا يترصبوا به ، ويقتلوه غدرا ..! ولكن « الكتخدا » لم ينتظر حتى الصباح .. فأرسل تجريدة قوامها أكثر من ألفى جندي ، فطوقوا قصر « لطيف باشا » فى « سوقة العزى » ، وحاولوا اختراق أبوابه المحصنة ففشلوا .. فقد استمات رجال حرس « لطيف » فى الدفاع .. فلما أعيتهم الحيل .. عمدوا إلى الهجوم على المنازل ، والحوانيت المجاورة للقصر .. فخربوها ، ووثبوا من السطوح إلى أسوار القصر .. ثم هبطوا فى ساحته ، وعاثوا فيه فسادا . وتقتيلا فى سكانه . فلم يفرقوا بين الشيوخ والنساء ، والأطفال ، والجنود ، وأشعلوا النيران فى بعض أركانه ، وأعملوا السلب والنهب فى أركان أخرى .

لجأ « لطيف باشا » إلى جناح « ياقوتة » يودعها الوداع الأخير قبل أن يفر من مخبأ يعرفه جيدا .. وأصبرت على أن ترافقه رغم الأخطار التى تحف بالرحلة .. رجت توسلت .. بكّت .. تعطل .. توقف لكى يقنعها بأن تتركه يواجه مصيره .. غلبه الوقت .. اقتربت الأصوات الهمجية .. ازداد اقترابها .. الطرقات على باب الحرم بلا حياء .. زلزلوا الجناح .. ينادون عليه .. لا بد أنهم عرفوا أنه لجأ إلى هنا .. أن يحطموا الباب .. صاحت فيهم « ياقوتة » .. طلبت منهم أن يسمعوا إليها .. قالت إنها تأمرهم أن يتراجعوا عن الباب حتى تخرج « الحرم » ولهم بعد ذلك أن يفتشوا الحرم لك كما يريدون ..

وتراجع الجنود وعيونهم مركزة على الباب .. الذى انفتح ، وخرجت منه جارية .. يغطيها الرداء من قمة رأسها إلى أخمص قدمها .. ورغم ذلك فقد كانت أعضاء جسدها

الرائعة التكوين .. توشك أن تعلن عن نفسها .. ثم اقتحم الفرسان الجناح .. وراحوا يفتشون عنه هنا وهناك .. إلى أن فاجأهم في ملابسه الكاملة ، وأعمل فيهم سيفه ، وراح يزوغ من ضرباتهم ، ويهاجمهم فيصيبهم ، ولا يصيبونه ، وكان لمعرفته بدهاليز الحرم لك وسراديبه .. السر في تفوقه عليهم .. رغم أن الفرقة التي كانت مكلفة بإحضار رأسه .. فاق عددها خمسة عشر رجلا .. وأصاب منهم ثمانية إصابات قاتلة .. ثم كمن له أحدهم واغتاله فجأة .. فصرخ ، وسقط يتخبط .. فأجهز عليه .

ولما اقتربوا يجزون رأسه لحملها إلى « الكتخدا » .. وكانت القلنسوة قد تدرجرت بجانبه .. وقفوا ، وقد أخذتهم الدهشة .. كانت الصديقة « ياقوتة » .. أما « لطيف » فكان قد تمكن من الهرب .. !!

الحريم أيام الطفولة



الفارس والحصان

الفارس والحصان

تشققت الأرض .. انكسر السيف .. سقط القمر .. تناثر شظايا .. براقة تخطف
البصر .. تختفى فى الشقوق .. حتى الخيل .. سقط الحصان بالفارس .. مذبحا
بطعنات السيوف .. حاول أن يتناسى دماءه التى تنزف من عنقه .. حتى لا يخذل
فارسه .. فالأعجم يدرك ما يحمل .. لكن غلبته آلامه .. عجز عن حمل عنقه ..
فتدلت بين قدميه الأماميتين .. انكفأ ، وانقلب بجواره الفارس الجريح ..

مازالت ساقه فى الركاب .. بلغت المأساة قمته .. عجز الفارس وقد شلت يده
بالسيف .. عن حماية نفسه ، وعن حماية الحصان .. وود الحصان المحتضر أن يتخبط ..
ليموت كما تموت الخيول .. لكن حرصه على سيده .. ألا يصيبه فى تخبطه .. جعله
يموت مشلول السيقان .. كما يموت الشرفاء ، وعينه على فارسه .. ثم صهل فى أنين ..
يودع سيده .. ينهى حياته .. يحذره من غدر الإنسان بأخيه الإنسان ...!

وتخلص « على بك الكبير » من تحت حصانه .. زحف قليلا ، والمعركة تحدم
حوله .. رأى الدنيا من خلال غلالة حمراء .. وأحس بلهب فى عينيه .. وفى فمه طعم
الملح .. مد يده السليمة إلى وجهه .. عرف السر .. كانت جبهته تشخب دما .. تتدلى
على وجهه .. وفى ظهره سيخ من الحديد المحمى .. هى طعنة سيف رآها وهى تهوى
نحوه ، وفرسه ينكفى به .. وأخرى فى ساقه .. عند الفخذ .. كأن ذئبا تنهشها .. هى
النهاية لا خوف منها .. لكن آلامها تتضاعف .. لأنها جاءت من التلميذ .. علمه « على
بك الكبير » لكى يكون له فكان عليه .. أراد سيفا معه فكان سيفا ضده .. فهو يتجرع
الآن غصتين .. غصة القتل والهزيمة ، وغصة نكران الجميل ..!!

وحوافر الخيل تصبطك بهجابه .. يتوقع أن يموت بين لحظة وأخرى .. كل شيء يثقل
فيه .. حتى الآلام تفاقمت .. تصاعدت بلغت ذروتها .. فلما فاقت قدرته .. مات
شعوره بها .. شيئا فشيئا .. لم يعد يشعر بأعضائه المصابة .. إنه يهوى الآن .. يسقط فى
بئر مظلمة .. يسقط حادا كأنه قذف من مدفع .. الظلام الغارق فى الاحمرار يطبق
عليه .. ورغم الحركة العنيفة التى تدب حوله فوق الرمال .. فإن الصمت يمشى فيه ..
يوشك على السكون .. ودماء حصانه تنسرب حوله .. ترسم جزيرة لرجل فى بحيرة من
الدم ..!

ويخفت كل شيء من حوله .. رجاله يهربون فارساً إثر فارس ، انطفأ المصباح ،
ولا بد أن تختفى الفراشات .. انكسر السيف فى يد البطل .. وعن قريب يبحث المنتصر
« محمد أبو الذهب » .. عن جثة المهزوم « على بك الكبير » ، وليحز رأسه .. أو
يحملها إليه أحد أتباعه .. ليحصل على مكافأة ..!

وتمنى الفارس لو اتسعت لحظة موته .. ليحزن على نفسه .. نفس الإنسان الذى أراد
أن يكون شيئاً بعد ضياع .. فكان .. وفى سبيل ذلك عانى الكثير ، وأحسن كثيراً ،
وأساء كثيراً .. لكن بالقطع كانت حسناته أضعاف سيئاته ..!

فى هذه اللحظات التى يجب أن تتوقف فيها الأرض عن الدوران .. تنتهى حياة
الطفل الذى جاء من ظهر قُسيّس فى بلاد الأناضول .. ثم خطفه النخاسون ، وبيع فى
« القاهرة » .. ليدفع به إلى مدرسة ممالك « إبراهيم كتخدا القاذووغلى » ليصير مملوكاً
لسيده .. وفارساً من فرسانه .. وحمل وهو فى المدرسة .. اسم « على بك قبطان » ..
ثم صار « على القاذووغلى » نسبة إلى سيده .. ثم أصبح « على بك الكبير » عندما
ارتفع نجمه فعلاً صيته ، وولى مشيخة البلد ..!

وقد وعى الدرس من أستاذه « إبراهيم كتخدا » فأكثر من شراء الممالك ليجعلهم
دروعه التى يتحصن خلفها ، وسيوفه التى يقاتل بها .. واستطاع بقوة سطوتهم التى
يدعمها نفوذه .. أن يتبوأ المراكز الهامة ، والحساسة ، والخطرة .. وحينما خرج أميراً على
الحج .. تخوف بعضهم عليه من الأعراب فى الطريق .. لكنه كان قد اصطحب أكثر من
أربعة آلاف مملوك من ممالكه وبعض العسكر .. فلما تصدى له الأعراب لقنهم درساً ما
تلقوه من أحد قبله .. وأمن الطريق لبقية القوافل .. بعد أن أسر البعض ، وأرسل جماجم
بعضهم إلى « القاهرة » .. محمولة على كثير من الجمال .

كانت هذه الواقعة .. هى الناقوس الذى لفت أنظار « القاهرة » إليه .. يوم عودته ..
خرج الوالى بنفسه لاستقباله ، وأمر أن تزين « القاهرة » ثلاثة أيام ، وراح ممالكه
يستعرضون قوتهم ، وفروسيّتهم أمام الجميع .. ومن منصب إلى منصب .. يفرض « على
بك الكبير » رأيه ، ويحشد فى المناصب المساعدة رجاله ، ويحيط نفسه بحاشية ،
وبموكب لا يسير إلا به ، بعضهم يكون فى المقدمة وبعضهم يتأخرون حتى يكونوا فى
المؤخرة .. وبهذا العدد الضخم من الممالك ألقى الرعب فى قلوب الآخرين ، ومهد لنفسه
الطريق إلى حكم البلاد وخذه .. فلما تحرك نحو منصب شيخ البلد ، وكان شاغراً ..
تراجع جميع الذين كانوا يتمنونه ، وكنتموا رغباتهم فى أعماقهم .. ووقفوا بجانبه ضد من
كان يناوئه .. وكان أول من ناصره ، وأيده فى دعوته .. « عبد الرحمن كتخدا »
كبير الجند والقائد العام وقتها .. ورضى الأمراء أن يتولى مشيخة البلد دونهم .. لا اعترافاً
له بالعبقريّة ، ولكن خوفاً من بطشه ، وجبروت ممالكه .. وهكذا أصبحت مشيخة البلد

شيئا ضيقا على أحلامه .. فحرض المماليك ، والأمراء على القوة ضد الوالى ، وجعل رجاله يقودون المظاهرة .. التى صعدت فيها الخيالة ، بكل فرسانها إلى القلعة .. فخلعوا « الوالى » وهبطوا به إلى أحد القصور .. فسجنوه .. وأخذوا « على بك الكبير » فنادوا به « قائمقام » وأرسلوا إلى « إستانبول » يبلغونها ما فعلوا ، ولم يسع « إستانبول » إلا أن توافق على ما حدث .. تمهيدا لإرسال « الوالى » الجديد !..

ورتب « على بك الكبير » كل شيء وهو فى « القائمقامية » حتى إذا ما وصل الوالى الجديد ، وجد نفسه لا يحكم إلا نفسه ، وأن جيش القلعة .. لا يستطيع أن يغادرها إلا إذا جاء رجال « على بك الكبير » لحمايته .. واستدار « على بك » يستبعد كل من يشم منه رائحة معارضة له من الأمراء .. وطاردهم مطاردة انتهت بنفى « عبد الرحمن الكتخدا » الذى كان سببا فى توليته مشيخة البلد فى أول الأمر .. لكن الظروف تغيرت ، والهدف الآن .. هو الولاية ذاتها .. ثم حكم « مصر » بعيدا عن الخلافة ، والاستقلال بها .. وهو هدف كبير .. وفى سبيله .. صفى « على بك » كل أمير معارض ، أو كبير غير راض عنه ، وبخروج الأمير أو موته .. يسلم قصوره ، وإقطاعياته إلى ممالك « على بك » ليكونوا أكثر إخلاصا ، وأشد إيمانا ، وكان على رأسهم « محمد بك أبو الذهب » .. وحينما نادى بنفسه حاكما على « مصر » .. مستغلا عن تركيا وأبرم معاهدة مع روسيا .. فى الوقت الذى كانت تستعد فيه لحرب تركيا .. على أن تقره بعد ذلك فى حكم « مصر » !..

وتمرد الشام على السلطان .. فرجاه أن يرسل من عنده « العسكر » لإخضاعه .. فسير « العسكر » بقيادة تلميذه المخلص جدا « محمد أبو الذهب » فأخضع الشام ، وأرسل جماجم القتلى الكبار من القواد إلى « مصر » .. على عدة جمال .. وظل نصف عام يقاتل هناك .. إلى أن فتحت له كل الشام أبوابها ، واحتل قلاعها .. ثم عاد من هناك وفى ذهنه مؤامرة .. فما كاد يقيم فى « القاهرة » مع جنوده العائدين ، وكبار العسكر خمسة عشر يوما .. حتى حاصر « على بك الكبير » ، وأجبره على الفرار ، ونصب نفسه مكانه .. وهرب « على بك » إلى « الصعيد » .. ثم إلى « السويس » .. ثم إلى « غزة » حيث بقى هناك إلى أن جمع بعض الرجال حوله .. ثم أرسل إليه « محمد أبو الذهب » بعض الجواسيس .. الذين أوهموه أن « القاهرة » تنتظره .. وأنه لو هجم على « أبو الذهب » لخلته « القاهرة » من الخلف ، وهكذا يقضى على « أبو الذهب » ، ويلع الطعم « على بك » وحضر ، وكان هذا اللقاء التاريخى فى « الصالحية » !..

إنها النهاية ولاشك فى ذلك .. ها هو رجل يتقدم على فرس .. وجاءه صوت يخترق أذنيه كأنه يجىء من الآخرة .. صاح الصوت .. « على بك الكبير » .. إنه « على بك الكبير » .. الرجل الفارس ينزل من على حصانه .. والسيف فى يده .. يالللنهاية الطيبة .. إن الذى سيجز عنقه هو « محمد أبو الذهب » .. نفسه .. اقترب منه

الفارس .. صباح « محمد أبو الذهب » سيدى وأستاذى « على بك » .. لا بد أنها حيلة أخرى ليعطيه عنقه دون مقاومة ، ومن أين له بهذه المقاومة ، وحاول أن يفتح عينه التى غشيتها الدماء .. كان « محمد أبو الذهب » ذاته .. وحاول « على بك » أن يستدير بعنقه عنه .. آخر احتقار يمكن أن يوجهه له .. لكنه عجز .. وانحنى الفارس .. فاحتضن الجريح ، وساعده على الوقوف .. حمله من تحت إبطه .. وسار به فتقدم حملة « المحفة » .. لكنه صرفهم .. أصر على أن يحمل سيده وأستاذه بنفسه .. طوقه من تحت إبطيه ، وحمله على كتفه .. حتى أتى به نخيمته .. وأرسل فى طلب المطيين ، وراح يغسل جراحه بيديه ..!

يا لك من داهية يا « أبو الذهب » .. لو أنه جز رأسه لكان ذلك أهون على « على بك » ولولا عجزه عن عمل أى شئ .. لمنعه من إسداء هذا الجميل إليه .. إنه لا يكفر عن سيئاته .. بل يضيف إلى سيئاته .. أسوأ أعماله .. فى شكل جميل .. يريد لنفسه مكانة فى التاريخ .. لقد رحم أستاذه ، وعفا عنه ، وهو قادر على إلحاق كل الضرر به .. ليته لم يفعل .. وحينما هدأت جراحه ، واستطاع أن يطلب الماء .. ليطفىء الحريق الذى كان يشعر به يشوى كبده .. أسرع « أبو الذهب » يسأله فى ذلة أمام حاشيته .. هل أنت راض عنى ياسيدى ..؟ ولم يجب « على بك » أدار وجهه وصمت .. وجعل حوله الأطباء ، وظل خمسة عشر يوما يعالج .. إلى أن أعلن أنه مات متأثرا بجراحه ..!

وشيعت جنازته فى احتفال مهيب .. سار أمامها « أبو الذهب » ، وتلقى فيه التعازى .. إلا أن أبناء البلد تهامسوا .. أن السيد مات بالسم ، وليس من آلام الجراح ..! لكن أحدا من الأمراء لم يستطع أن ينقل ما يشاع إلى أسماع « أبو الذهب » .. الذى وضع النهاية .. للطفل الذى ولد فى الأناضول ، وبيع فى « القاهرة » ، وأذل السلطان ، وهتف باسمه فى « القاهرة » ، ومدن الشام .. وجرح فى صحراء الصالحية .. ثم مات فى « القاهرة » ..!!

★ ★ ★

الحرية أيام المماليك



الظلال

حينما يعربد الظلم .. يطبق الظلام ..! وتبكي الشمعة مذعورة من أشباح
الظلمة ..! ويتحرر الضوء ليدفن في مقبرة الليل ..! ويتحول الجميع إلى ظلال ،
فقدت أصولها ..! ويفقأ عين الشمس صباح القزم ..! وتصبح الدنيا ليلا .. بلا
نهار ..!

*** تداعت الأيدي برايات القافلة التي أوشكت أن تنكس ..!

الإرهاق يفتك بالجميع .. الفرسان ، والخيول والكلاب التي تتابع القافلة .. فقد
اجتاح الخيول مرض غريب .. يرتعش الحصان لحظة إصابته به .. تتعثر خطواته .. يعتربه
عرق بارد .. ثم ينبطح على الأرض .. تعجز قوائمه عن حمله .. تصيبه هستيريا .. يمن
أنيبا طويلا .. كأنه يعتذر لصاحبه .. ثم يلفظ أنفاسه ..!

والفرسان على ظهور الخيول .. مجهدون .. مرهقون .. يغفون .. بعضهم
يسقط .. وبعضهم يستيقظ في اللحظة الأخيرة .. اجتازوا بستانا من نخيل .. حلقت
فوقهم الغربان السود .. راحت تنق ، وتضرب بأجنحتها ، ورفع بعضهم عيونهم إلى
فوق ، وحول ، وبعضهم جز على أسنانه ..!

فمنذ أن غادرت القافلة « بنى سويف » فجرا .. لم تتوقف للراحة ، وها هو النهار
ينتصف ، الشمس ، تشوى كل شيء ، ولكن « مراد بك » يبدو مصرا على إلغاء
الراحة .. حتى يصلوا « الجيزة » الليلة .. لكنهم يتكاسلون ، وهم يعبرون مثل هذه
البيساتين .. يلتقطون أنفاسهم .. فقد أقبوا يسرون مسيرتهم منذ أيام من أقصى
الصعيد .. من « جرجا » ..!

وأصر « مراد بك » على أن يسير بهم بعيدا عن « النيل » .. بالقرب من سفح الجبل
الغربي .. حتى يأمن مفاجآت النيل ، وفي ذات الوقت .. ليحصل على أعلاف الخيول ،
وطعام الفرسان من القرى المتصلة على طول الطريق رغم وعورة السبل وسوء المسالك ،
فاجتمع الإرهاق على الفرسان ، واستبد المرض بالخيول .. وسقطت القافلة .. في قبضة
حالة نفسية .. كتيبة .. قاسية .. جعلت أعصابهم أوهى من خيوط العنكبوت .. أحد
الجاويشية لم يتحمل رؤية حصانه وهو يموت .. فجرد سيفه محاولا أن يطعن به نفسه ..
لولا أنهم أمسكوا به .. فلما جردوه منه .. راح يكي ، ويلطم ، ويهيل التراب على

رأسه ..! وقال بعضهم لبعض .. إنه يبكى نفسه ، وينعى حظه الذى ألقى به مع « مراد بك » ..! ويبكى أولاده الذين تركهم فى « القاهرة » .. وهام على وجهه فى الصعيد مع سيده ..! فقد أصبح على يقين .. من أنه سوف يموت كما مات حصانه ويدفن فى قبر مجهول .. وحينما أوغل فى بكائه ، وأمعن فى هستيرته .. هب فيهم صارخا أن يعطوه سيفه .. فليس بينهم من لن يفعل ذلك .. إن لم يكن اليوم فغدا ..!

صفتهم جبلته وكلماته .. كل عبارة قالها هوت على ظهورهم كالسياط .. فكلهم كانوا مثله .. عجزاً ، وقهراً ، وحزناً ..!

ألقى عليهم كلماته .. أحسوا كأنهم سقطوا فجأة فى شباك .. صمتوا وزاغت أبصارهم .. ران الصمت رغم الضجيج الذى يحيط بهم .. تعاقبت على ملامحهم مشاعر شتى متباينة .. أخرجه صمتهم من جنونه .. لقد أصاب جراحهم ، وهويتخبط فى جراحه .. تقلصت ملامحهم ، ودمدمت الدموع خلف أجفانهم .. أفاق من غشيته .. فقد حطم فى ثورة غضبه وأحزانه .. بعض القلوب التى كان يحبها ، والتى يدفع نصف عمره .. ولا يرى دمة فى مآقيها ..!

اعتذر عما سببه لهم ياكبار ، فأشاحوا بوجوههم عنه .. والتمسوا له العذر .. لكنهم انفضوا .. حتى لا يرى كل منهم دموع صاحبه ..!

أخيراً شعروا أنهم ضحايا .. مزقهم الصراع المسعور بين السيدين الكبيرين .. « مراد بك » ، و « إبراهيم بك » .. كلما تخاصما .. تحاربوا هم ، وتضاربوا هم ، وإذا اتحد الطاغيتان نسيا الجميع .. فى غمرة المتع التى يفرقان فيها .. لا سيما « مراد بك » الذى له أكثر من أربعة قصور .. عدا قصر الروضة ..!

ومنذ أن أحس « مراد بك » بالخطر على نفسه .. إثر مشادة بينه وبين « إبراهيم بك » .. على تعيين « الكتبخدا » فقد كان « مراد » يريد من رجاله ، والآخر يريد من رجاله .. فالكتبخدا هو رئيس الباشجا ويشية الذين يقودون « الوجاقات » ، المعسكرات فى « القاهرة » .. ليلتها توجس خيفة من أن يقتله .. بعد أن تطوق قصوره أو يأخذه إلى السجن .. فأرسل إلى مماليكه أن يوافوه بجنودهم ، وكان عددهم يزيد على أربعة آلاف مملوك .. وخرج بهم فى غفلة إلى « البساتين » فجوز بهم « النيل » إلى « الحيزة » .. ثم اجتاحت الصعيد .. فاستباحه له ولهم .. حتى استقر به المقام فى « جرجا » .. ولم يفكر فى العودة إلا بعد أن أرسل إليه « إبراهيم بك » .. بعض الأمراء والعلماء ، وعلى رأسهم ولده .. يرجونه العودة ، ويعطونه الأمان ، وينقلون إليه تحيات شيخ البلد « إبراهيم ك » .. فكل خلاف بينهما لا ضحية له .. سوى الرعية ، ومصالح الناس .. فقد انقطع

عن « القاهرة » .. كل شيء كان يصلها من الصعيد .. حتى المراكب الشراعية .. لم يعد يتوفر لها الأمن والأمان .. وانتشرت عصابات السلب والنهب بالإكراه .. على الطريق نهرًا ، وبرًا ..!

« مراد بك » كان خبيثًا ، و « إبراهيم بك » أحبب منه .. فكلاهما تلميذًا لمدرسة واحدة .. هي مدرسة « على بك الكبير » .. فلم يشأ أن يعود وحده مع مماليكه .. فقد تكون حيلة من « إبراهيم بك » للقبض عليه .. فعقد مع العرب ، والهواره حلفًا ، وساق الكثير من فرسانهم في قافلته .. بعد أن وعدهم بما يحلمون به .. من جاه وعز .

* لابد أن يبلغ الليلة « الجيزة » بأى ثمن .. ففي ضحى الغد سوف يركب الوفد القادم لمفاوضته .. سيرفعون الراية عند « جزيرة الذهب » ، وسوف يعطيهم إشارة الأمان للعبور فإذا وافقوا على كل شروطه .. عبر معهم .. وإلا هاجم « القاهرة » وعبر بكل هذا الجيش .. بعد القتال ، وخلع « إبراهيم » من المشيخة ، واستباح « القاهرة » .. ثلاثة أيام ..! وهو يخشى إذا وصلوا « الضحى » ، ولم يجدوه فى مواجهتهم مع هذا العدد من رجاله .. عبروا إلى « الجيزة » بفرسانهم وأخلفوا شروطهم .. من أجل ذلك لم يستطع أحد .. أن يتقدم إليه بطلب راحة للقافلة المنهكة ..!

وثمة أمر بالغ الأهمية لم يفتن إليه أحد فى القافلة .. سوى الذين كانوا يحيطون « بمراد بك » .. فقد وصل قبيل الظهر فارس قادم من « القاهرة » .. كان يحمل رسالة إليه .. لكن أحدا لم يعرف أين هذه الرسالة ، ولا ما هو محتواها .. وقد انتحى « مراد » بالفارس ، وحمله ردا شفويا .. ثم مضى على حصانه السريع العدو كأنه من فرسان البريد ..!

كانت الرسالة من « نفيسة هانم المرادية » زوجته .. تخبره بأن يصبر على ألا يعبر « النيل » إلا إذا أطلقت مدافع « القلعة » تحية له .. حتى يعلم الجميع مكانته ، وأنه سيد البلد ، وشريك شيخها فى المشيخة ، وتنحنى رؤوس الأمراء التى ارتفعت فى غيبته .. وتأكيدا لحسن نواياهم - أما إذا رفض هذا الشرط .. كان ذلك دليل الغدر المبيت ، والأفعال الخسيسة المنطوية فى حناياهم ..!

ورد « مراد » ، وقد حفزه الشوق المخبوء فى أعماقه .. إلى التصميم على مغامرة لا يقدر عليها إلا شاب فى سن المراهقة .. فقد طلب من « نفيسة هانم » أن تخرج بعد صلاة العشاء إلى « قصر الروضة » .. وحدها أو مع جارية واحدة على الأكثر .. ثم تنتظر لقاءه مع أذان الفجر تماما .. ولتحذر أن تشعل فى القصر مصباحا أو مشعلا .. فقد تكون عيونهم عليه فيغتالونه ليلا .. ولتنتظره فى الطابق الأول .. والجذر كل الجذر من أن يتسرب الخبر إلى أى مخلوق .. حتى الجارية التى سوف تذهب معها .. لا يجب أن

تخبرها .. إلا بعد أن يصل إلى القصر ..! وفي منتصف الليل .. أو بعدها تنادى الحارس ، وتخبره أنها فى انتظار رسول قادم من « مراد بك » فإذا وصل فليتركه يمضى إلى الداخل دون أن يسأله .. لأنه سوف يكون فى ملابس « مراكىبى » صعيدى .. حتى يعبر « النيل » دون أن يثير انتباه عيونهم ..!

فهل يستطيع ، وقد ارتبط بهذا الموعد .. أن يبيت بعيدا عن « الجزيرة » ؟ .. وحينما وصلت القافلة عند « سقارة » .. نادى « الكتخدا » ، وتحدث معه طويلا .. حدد له مكان كل فرقة .. وطريقة انتشارهم من « الحوامدية » حتى « إمبابة » .. ثم انطلق مع الحرس الخاص به .. يسبق القافلة .. ليستريح بعض الوقت قبل وصولهم ، ولكى يكون على استعداد للقيام بمغامرته ، وحتى يتلقى رد « نفيسة هانم » على رسالته لها ..! وبلغ الأهرام قبل أذان العشاء .. فحط رحاله وترك بعض الحرس فى انتظار القافلة ، ولم يأخذ معه سوى خمسة فرسان ، وانطلق شرقا إلى « النيل » .. وفى منتصف الطريق .. لقيه الفارس العائد بالبريد .. فقال له إنه أبلغ « نفيسة هانم » ، وإنها سوف تحاول الصعب والمستحيل لكى تحقق له رغبته .. فى لقاء الليلة .. فهى ليست بأقل منه شوقا إلى هذا اللقاء ..!

وظل مع رجاله طول الليل .. يقطع الشاطئ من « إمبابة » حتى ما بعد « جزيرة الذهب » لعله يجد مكانا صالحا للعبور .. لكن عيونهم كانت تنتشر على طول الشاطئ الشرقى .. إذ يبدو أن الحذر الذى أخذ نفسه به .. أخذوا هم أنفسهم به أيضا .. لكن ما هو الحل ؟ وانتصف الليل أو كاد .. وحاول مع رجاله أن يجد مكانا آمنا .. يعبر منه .. لكن من الواضح أنهم أعلنوا الليلة اليقظة التامة .. حتى لا يأخذهم على غرة .. وهو إذا غامر ، وركب أى زورق .. قد يسقط فى أيدي جنود حمقى يقضون عليه .. قبل أن يسلموه صيدا ثميناً « لإبراهيم بك » .. وكلما مضى الوقت تصاعدت أزمته النفسية .. وفى اللحظة الأخيرة .. لم يجد بدا من الاستسلام للحذر .. حتى لا يندم .. فأشار إلى « الفارس » الذى حمل إليه رسالتها ، وهو يتمتع بحرية العبور .. أنه يعبر فيلتقى بها فى نطاق السرية ، وينقل إليها اعتذاره .. شاكراً تجشمها مجيئها إلى « قصر الروضة » ..!

.. وإذا كانت شواطئ « النيل » وضعت تحت المراقبة الدقيقة .. فإن قلب « القاهرة » كان تحت مراقبة أدق .. وكلما همت « نفيسة هانم » بالخروج عادت إليها الجارية لتقول لها .. إن القصر محاط « بالبصابين » ، وإن « الجماميز » كلها تحت عيون باعة جائلين لم ترهم قبل الآن .. وخشيت أن تخرج فتكون فحاً لسقوط « مراد بك » ، وهى لا تستبعد أمراً مهما كان خسيساً .. على نجسة « إبراهيم » ، ومما ليكه الذين يصيهم بالكمد عودة « مراد بك » .. ولم تجد بدا من أن ترسل جارتها لتلتقى به .. وتبلغه أسفها ، وترجوه أن يعود سريعا .. فكل شبر فى « القاهرة » تحت المراقبة .. وترددت الجارية رغم حبها وإخلاصها لسيدتها .. لكن لم يكن أمامها سوى إطاعة الأمر ..

فارتدت ملاءة تلفها من رأسها إلى قدمها .. ثم ركبت بغلة ، وأخذت أحد العبيد ليجرها .. واخترقت معه .. شوارع غير مأهولة إلى الروضة .. فلما وصلت إلى القصر .. وأوت إلى الطابق الأول .. قالت للمحارس قرب منتصف الليل .. إنه قد يصل حامل رسالة من « مراد بك » فليدعه يدخل فور وصوله .. وحذار من أن يشعل أى مصباح على الأبواب أو داخل القصر ..!

بدأ الفجر يقترب .. بدأ المؤذنون ينشدون التواشيح التي تسبقه .. وتسلل من « النيل » رجل قفز من زورق صغير .. فأحاط به جنود « إبراهيم بك » فلما قربوا « الفوانيس » التي يحملونها من وجهه .. وقال لهم إنه صاحب مركب مسافرة إلى الصعيد .. ينوى صلاة الفجر فى مسجد « السيدة زينب » تركوه يمضى دون تعليق .. فقد كانت ملابسه تنبئ عن صدق قوله ..!

لكنه سعى بعد ذلك .. نحو « قصر الروضة » ، وهو فى حذر يمسك بخطواته .. إن كل شجاعته الآن تبخرت ، وتمنى لو أنه اعتذر عن هذه المهمة .. التي قد يدفع حياته ثمنا لها .. إنه لا يدري كيف يستقبله حارس الباب .. إن أى ضجة يحدثها قد تؤدي به إلى المشنقة .. لكنه أيضا لم يستطع أن يعرف التفاصيل .. ولكنه يعتمد فقط على أنه التقى « بنفيسة هاتم » ، وهى تعرفه ، وهو يعرفها .. لكن اللقاء سوف يتم فى الظلام .. وهى واثقة أن القادم « مراد بك » .. إنها حتى الآن لا تعرف أن القادم رسول من « مراد بك » وليس « مراداً » نفسه .. لذلك عليه أن يتكلم مجرد اللقاء .. ليعلمها أنه ليس « مراداً » ..

وبدأت كل أعضاء جسده ترتعش .. فالسقوط فى أيدي رجال « إبراهيم بك » أهون مما خطر بباله الآن .. إذن ماذا يمكنه أن يفعل ، لو أن « نفيسة هاتم » .. ألقت بنفسها عليه ، وتحت جناح الظلام حصلت منه على ما يجب أن تحصل عليه .. وهى لا بد تريد أن تكافئ « مراد بك » على مغامرته .. بأن تحقق له الهدف الذى غامر من أجله .. !

إن مجرد مثوله بين يديها .. عليه أن يقول لها فى الظلمة .. سيدتي إن « البك » يعتذر .. فتفريق من أوهامها .. سيكون ذلك صدمة .. لكن ما ذنبه ؟.. إن صدمتها الليلة .. خير ألف مرة من الذى قد يقع لو أنه سكت ..

وتقدم فى خطوات متعثرة نحو القصر الذى كان يربط فى الظلام .. كأنه قطعة من الليل .. وفى الطابق الأول .. كانت الجارية تجلس فى الغرفة الواسعة على أريكة من

الحرير ، وقد أضاءت شمعة ، وضعتها داخل « فانوس » .. أخفته في ركن بعيد ، وحجبت شعاعها بمنديل أسود .. فلم يظهر منه سوى أصبع ضوء يصعد على الجدار البعيد نى ذبول .. ثم يتبدد ، ويضيع قبل أن يصعد المتر الأول من الجدار .. وبقيّة الغرفة تزداد حلكة بهذا الشريط من النور المخنوق .. عملا بوصية « نفيسة هانم » .

وسألت نفسها ماذا تفعل إذا اندفع « مراد بك » .. فأخذها بكل شوقه ، وحرمانه على أنها « نفيسة هانم » ..؟ إنها تهمس في أذنيه قائلة .. سيدى .. إن سيدتى تعتذر للمراقبة المشددة حول القصر فى « الجماميز » .. وقد آثرت ألا تثير شكوكهم وشبهاتهم بخروجها .. فيقصون أثرها .. ثم تكون الكارثة .. لكن ماذا لو لم يمكنها من إلقاء كلماتها ، وهى تعلم مدى حبه لسيدتها وشوقه ، وقبل أن تنطق يكون عصرها بين ذراعيه ..

إن سيدتها شددت عليها ألا تطفىء الشمعة المخبأة ، فيرسخ في ذهنه أنها مؤامرة ، حينما أحست بخطواته .. قامت تطمئن على الشمعة ، فإذا بالشمعة تهب تطفئها الريح ، وأفرعها الظلام - فقامت تبحث عن عود ثقاب .. لكن خطوات القادم اقتربت .. وصلت إلى الباب .. اقتحم .. ملأت أنفاسه المكان .. مدت يدها فى الظلام وهى تقول سيدى .. فتلاقت يدها بيدي سيدها .. الذى سمعته يهتف « سيدتى » ثم جذبها فاحتواها فى صدره .. تحسس وجهها ، وضع يده على فمها يرجوها ألا تتكلم ، ووضعت هى يدها على فمه تزجوه ألا يتكلم ، لم يستطع أحد من الشبهجين أن يميز الآخر فى الظلام .. الذى أطبق عليهما ، ولكن السكون كانت تجرحه الهمسات الحادة !!..

استبدت بها رغبة شريرة .. فى أن تشعل الشمعة لكى ترى « مراد بك » ويراه .. ولم يكن قد أفاق إلى فعلتها فى الظلام .. فلما أضاءت الشمعة .. صرخ صرخة مكتومة .

أنت الجارية كهرمان ؟!

- صاحت :

- أنا كنت فاكراك « مراد بك » .

واتفقا أن يكتما الخبر ..!!

الحرم أيام المماليك



أيام خديعة

أيام خرساء

الطبول تعلن على أهل المحروسة .. بداية « مولد الحسين » ، والمواكب بدأت تستعد للمسيرة .. الزينات ، والرايات على جانبي الطرقات ، ونواصي الحارات من باب زويلة حتى بين القصرين ، والشيخ « السادات » عاد منتصباً بعد صراعه مع العثمانيين إلى بيته في المشهد الحسيني .. والليل تحول إلى نهار ..

أراد الوجدان الشعبي أن يعبر عن فرحته بعودة الشيخ « السادات » وفي ذات الوقت على من شأن صاحب المولد .. وفي الليلة الرابعة عشرة .. خرجت المدينة كلها في مسيرة .. ممثلة في طوائفها ومشايخها .. شيخ الحدادين ، والنجارين .. والنحاسين والجزارين والنساجين والصياغ .. كل حرفة على عربة تجرها الخيول وقد صنعوا فوقها نموذجاً من الحرفة ووقف شيخها يمارسها .. وعلى جانبي الطريق .. يحتشد الناس .. كبارهم وصغارهم .. وفي المقدمة سادة الطرق الصوفية .. وتتوقف المسيرة أمام القصور ويمرر صاحب القصر أو أحد أتباعه .. فيلقى على المواكب « بدارات » من المال .. أو من المسك .. أو من الزهور .. وتتعالى الدعوات وتجأر الأصوات وتتصاعد التضمرات مع حلقات دخان البخور ..!!

وفي صبيحة الليلة الكبيرة .. خرج « إسماعيل باشا » ، ولم يكن وصله فرمان باستوزاره إلا من يمين .. فعقد الديوان في بيته بالأزبكية .. ثم غادره في موكب من الأمراء والوجافلية ، والعساكر الرومية والمصرية وعلى رأسه الطلخان والقفطان الأطلسي وأمامه السعاة والجاويفية والملازمون وخلفه النوبة التركية وشق « القاهرة » في موكب عظيم .. ليؤكد للناس أن أيام « إبراهيم بك ومراد بك » مضت ولن تعود .. وأنهما سوف يموتان مع رجالهما في الصعيد .. أو يلتزمون جميعاً الطاعة أو يرسلون أموال هذا الجزء من البلاد إلى السلطان .. كان « إسماعيل باشا » يرمى إلى الموازنة .. بين احتفال أهل مصر بمولد الحسين وعودة الشيخ « السادات » إلى منزله القديم وتأكيد قبضة السلطان ..!!

ومن وراء مشربيات قصر الجماهير كانت امرأة .. في قمة نضجها الأنثوي .. تغالب دموع القهر وتكتم في ضلوعها عوامل العجز .. على محياها كبرياء أصيل .. عميق الجذور .. لا تريد لأجزائها أن تنتصر عليها .. شامخة فوق هزيمتها والشموخ عذاب .. رافعة رأسها والرأس المرفوعة قد يدفعها صاحبها ثمناً للحظة ارتفاع ..!

إنها ليست امرأة عادية .. فهي ذات كيان خاص .. « المحروسة » كلها تعرفها .. تهتف باسمها .. تتغنى بمروءتها .. تتحدث عن شجاعته .. معبودة الرجال .. والمثل الأعلى لكل امرأة .. فكل سيدة تتمنى أن تعيش للحظة واحدة .. « نفيسة المرادية » .

من أجل ذلك كان القهر الذى يسحقها فظيماً .. فالقهر عادة يجرى بقدر الإمكانيات التى يفقدها المقهور .. وكانت إمكانيات « نفيسة هانم » غير محدودة .. إن « مراد بك » الذى كان مطلق اليد فى « المحروسة » .. كانت هى أيضاً مطلقة اليدين .. تفعل كل ما تريده أن تفعله .. إذا استعصى عليها أى أمر .. ابتسمت له ابتسامة ذات معنى .. فلا يتردد فى تنفيذه .. فإذا كان مستحيلاً ذرفت دمعة .. فإذا كان خطيراً يتعلق بحياة إنسان سلباً أو إيجاباً .. احتجبت فى جناحها يوماً .. بعدها يصنع « مراد بك » ما تريده منه .. حتى لو كان مطلبها أن يغادر منصة الحكم !..

فجأة وجدت نفسها بلا سلطات .. لقد هرب « مراد بك » مع « إبراهيم بك » بعد أن أحسا .. أن « إسماعيل بك » سحب البساط من تحت أقدامهما .. وأن أى ليلة يقضيانها فى « المحروسة » .. قد تؤدى بحياتهما .. بنفس الهدوء الذى كان يتحرك به « إسماعيل بك » .. تحركا جمعا المماليك .. اتصالا بالجاويشية المخلصين لهما .. اتفقا مع بعض الوجافلية .. على أن يخرجوا ليلاً إلى « البساتين » .. ثم يعبرا النيل إلى الشاطئ الغربى .. وبعدها تتوجه القافلة كلها إلى الصعيد .

وفوجئت القاهرة بأن الجبارين اختفيا فجأة .. وقد ترك كلاهما قصوره وحريمه والكثير من أمواله ومتاعه .. فقد كان كله يهون أمام حريتهما .. وهما على ثقة أنه لن يجرؤ أحد على الانتقام من حريمهم .. لأنهم سوف يعودون غداً أو بعد غد .

لكن الذى حدث هو أن « إسماعيل بك » انتهر الفرصة واعتدى اعتداء منكرأ على القصور والحريم .. ولولا أن « الشيخ السادات » والعلماء تصدوا له ، ووقفوا فى وجهه لعبث بالحريمات ، والقصور أكثر وأكثر .. فهو لم يكتف بما نهبه من المتعة وأموال وتحف من القصور .. بل أمر ببيع النساء والأولاد فى المزاد وجنت « نفيسة هانم المرادية » والأجلاف يقتحمون عليها القصر .. لولا أنها أسرعت تشتري نفسها برشوة كبيرة لكبير الجند ..

وليس هذا فحسب .. بل إن على عاتقها أيضاً .. أن تدبر أمور أكثر من ألف وخمسمائة نفس ما بين سيدة ، ومحظية وجارية من جوارى المماليك الذين خرجوا مع زوجها وشريكه .. وقد لجأ إلى بيتها وحملتها المسئولية عنهن .. فهي وحدها التى اعتادت الاتصال بالرجال والكلام معهم وهى وحدها المسموعة الكلمة عند الرجال .. الذين يعرفونها والذين لا يعرفونها .

واستطاعت أن تخدع كل العيون التي تراقبها .. ورتبت بريداً أسبوعياً يروح ويגיע بينهما وبين الممالك الذين استحوذوا على الوجه القبلى وأعلنوا أنهم أصحابه وأنهم سوف يزحفون على « القاهرة » .. إذا لم تستجب القاهرة لمطالبهم .

ومن هذا البريد جاءت مسؤوليتها وعظمت وكبرت مشكلتها مع السلطات الجديدة .. فلو أن السلطات وضعت يدها على حقائق هذا البريد .. لوضعت حبل المشنقة فى عنقها كما حدث للكثيرين .. واتهموا بالاتصال بالممالك القبلية ووجدت لديهم « مكاتبات » اعتبرتها السلطة اتصالات بجهات أجنبية فقطعت أعناقهم وسلخت وجوههم .. ثم علقت رؤوسهم على الأعواد فى الميادين .

لكن « نفيسة هانم المرادية » تجاوزت بحياتها وتكاد تقيم جهازاً متكاملًا يعمل على نقل الرسائل بينها وبين الأمراء المغضوب عليهم .. ولجأت إليها فتاة لم تتجاوز السابعة عشرة .. أحست عند لقائها بأنها ترى شيئاً غير عادى .. فماذا دفع بتلك الفتاة الخضراء إلى معترك هذه المعاناة ؟ وما كادت تلتقى بها حتى هوت الفتاة على يديها فأوسعتهما تقبيلًا ومالت تريد تقبيل قدميها .. لكن « نفيسة هانم » وقد هالها أن هذه الفتاة التى يؤكد مظهرها أنها ليست فى حاجة إلى معونة مادية حاولت أن تنحني لأن تمنعها من تقبيل قدميها .. فلما أمسكت بها وقربت وجهها من ملامحها التى امتلأت بالدموع .. قرأت فى عينيها رجاء لا يرفضه كريم بين جنبيه قلب ..! احتضنتها لكى تهدئ من روعها .. ربت على كتفيها .. ابتسمت وبذلت لها من نفسها الكثير .. وحاولت صادقة أن تزرع فى أنحائها الطمأنينة وأن تبث فى أعماقها السكون .. فقد كان الفرع يستبد بالفتاة كمشلول تلتهم النيران من حوله كل شيء ..!

فلما سألتها حاجتها التى جاءت من أجلها .. لم تتكلم ، وإنما نقلت نظرها بين الجالسات من ذوى الحاجات وبينها .. فأدركت « نفيسة هانم » بذكائها أنها تريدها على انفراد وجذبته من يدها واندفعت بها إلى غرفة أغلقتها عليهما .. وانطلقت الفتاة فى البكاء العنيف الذى عاق قدرتها عن الكلام .. ومازالت بها حتى هدأت .. ثم بدأت تروى ..

« نبوية » مصرية من بنات البلد .. والدها سعيد أبو الغيط .. صاحب حانوت « الطرشى » الذى يقع على ناصية حارة القنطرة عند الخليج والجسر الموصل إلى حارة « قولة » وأرض باب اللوق .. وكانت تقيم عند خالتها فى « الداودية » حينما قامت بينها وبين المملوك « مصباح » أحد ممالك « مراد بك » الصغار علاقة حب ، وكان على وشك أن يخطبها ويتزوجها .. لولا هذه الكارثة .. التى اضطرته أن يفر مع « مراد بك » ولقد كان فى وسعها أن تنتظره السنوات الطوال ، لولا أنه تقدم لها من يريد الزواج منها ، وهى لا تستطيع أن ترفض ولا أن تقول لوالدها إذا رفضت سبب الرفض الحقيقى .. ومن أجل

ذلك قررت أن تهرب إليه حيث يكون .. حتى لو كلفتها المغامرة عمرها ..

وهي تعرف كما يعرف الجميع كرم أخلاق « نفيسة هاتم المرادية » وسمعت من الجميع عن شجاعته ، وأحست أنه لا يستطيع أن يقف بجوارها أحد سواها .. فهل يمكن أن ترسلها إليه في الوجه القبلى .

استمعت المرأة الكبيرة القلب الكسيرته في نفس الوقت ورغم ذلك التفتت إلى المرأة الصغيرة فقالت لها .. إن الخطر لا يجب أن ينسبها أنها أنثى وإن للأُنثى الكبرياء والدلال على الرجل وإنه هو الذى عليه أن يخاطر ويحىء لكى يأخذها .. فإما أن ينجح وإما أن يهلك دون ذلك .. فتحفظ له ذكره ، وتبقى حتى آخر العمر تروى للأجيال أنه أحب فعف ثم مات وهو يحاول أن يؤكد حبه بالزواج فمات شهيداً ..!

وغاصت دموع الفتاة وهي تستمع إلى كلمات المرادية .. إنها كما سمعت عنها .. منتصبية الرأس حينما تنحنى كل الرؤوس .. هادئة حتى والقلوب تنخلع من حولها ..! وقالت الفتاة .. إن بيت والدها قد يضيق بها .. وهي لو ظلت هناك لزفوها إلى من جاء يخطبها دون أن تملك حق المعارضة وقطعت عليها المرادية الحديث .. مؤكدة أن بيتها منذ اللحظة تحت أمرها وأنها لو لجأت إليها ، لما استطاعت أى يد أن تمتد إليها ..!

وطمأنتها إلى أنها سوف تكتب إلى « مصباح » .. فإما أن يحىء مستهيناً بالأخطار والخطار وحيث يكون أهلاً لكل هذا الحب .. وإما أن يعتذر بالأخطار .. وعندئذ يكون لها الحق فى التعلق برجل يقتحم المخاطر من أجلها ..

خرجت الفتاة .. وهي تدعو من كل قلبها « للمرادية » وهي لا تعرف أن « المرادية » تجتاز أشد الأزمات التى تعرضت لها فى حياتها .. فلم يحدث أن ساءت ظروفها مرة إلى هذا الحد ..!

إنها وعدتها أن تكتب وأن ترسل بالبريد إلى « مصباح » .. ضمن البريد الذى استطاعت أن تقيمه بينها وبين الأمراء الفارين .. وكان ذلك يكبدها الشىء الكثير جداً من المال .. ففى كل منطقة يدفع رجالها للحراس والمراقبين لكى يغمضوا عيونهم ولكى يسمحوا لهم بالمسير ..

وقد كان بريدها يحمل كل خطابات ورسائل .. نساء وحريم الممالك والوجافلية والكشاف الذين فروا مع « مراد بك » و « إبراهيم بك » وكانت تقوم وحدها بكل تكاليف البريد .. رافضة أن تساهم معها النسوة الأخريات ..!

لكنها اليوم اصطدمت بأمر خطير .. عاد رجالها الثلاثة الذين يقومون بالبريد وهم

يرتعدون ويقررون أن المعجزة فقط هي التي أنجبتهم من أيدي زبانية « مصطفى الكاشف » .. الذى تولى أخيراً حكيماً منطقاً « طرة » !! حمل « الفرمان » من « إسماعيل بك » واحتل قلعة « طرة » .. وحشد رجاله من حوله وفرض قبضته على المسافرين .. فلا تكاد تمر سفينة ذاهبة إلى الصعيد أو قادمة منه .. إلا حاصرها وأمرها أن تجنح إلى البر .. وينقض عليها رجاله يفتشونها فيأخذ ما يرضيه ويفرض ما يرضيه وفي وسعه أن ينهبها كلها إذا راقت السلعة التي تحملها في عينه وحجته في ذلك أنها كانت للأمراء المتمردين الذين خرجوا على حكم السلطان .. وله أن يسجن الرجال فلا يطلقهم إلا إذا اشتروا أعناقهم .. وله أن يقتل منهم ما شاء بحجة أنهم قاوموا رجاله واعتدوا عليهم ..!

وطلبت منهم « نفيسة هانم » أن يترثوا بضعة أيام .. ريثما تفحص الأمر بدورها وما لبثت أن اكتشفت أن مصطفى كاشف طرة .. أصبح يدير المسألة لحسابه .. وأنه أرسل إلى بيوت الأمراء الفارين .. بعض رجاله يسألهم .. أن الملابس والأفئدة والأمتعة والخطابات يمكن أن تصل عن طريقه إلى الصعيد وكل شيء له الثمن الذى قدره هو .. فإذا ضبط محاولات تتم من وراء ظهره .. استحقوا منه كل ما سوف ينزله بهم ..!

وفي أول الأمر خشوا أن يكون ذلك من الأعيب « الكاشف » .. غير أن المغالاة في طلب الرشوة أكدت لهم جدية الموضوع .. وعاد البريد إلى ما كان عليه ولكن بشكل أشبه بالسلب والنهب .. إلى حد جعل « نفيسة المرادية » ترسل خاتماً لها من الذهب المرصع بالماس وعلى جانبيه قطعتان من الياقوت الأحمر .. مع البريد كثمن يتقاضاه الكاشف مقابل إغضائه عن الذهب والإياب لمرة واحدة ..!

وانقضت عدة دورات بريدية ولم تظهر « نبوية » فى منزل « نفيسة هانم » وذات صباح جاءتها وهي تبكى .. قالت لها إن هذا الخطيب القوى .. قد أُنذر والدها بأن الزفاف سوف يكون الخميس القادم وأنه أرسل قدراً كبيراً من الذهب .. أدهشها أن تجلو بينه « خاتمها » الذى رأيته فى أصابعها فى الزيارة السابقة !!!

من أجل ذلك جاءت لترى إليها وتسألها ماذا حدث ..؟

وأرتج على « نفيسة هانم » .. لأول مرة تختلط الأمور فى ذهنها .. إلى حد تفقد فيه القدرة على التفكير .. قالت والكلمات تنزلق من شفيتها ..

ما اسم الرجل الذى يريدك زوجة له ..؟

قالت :

سمعت من أبى أن اسمه « مصطفى الكاشف »

أسقط فى يد « نفيسة هانم » .. تمتنت لو أن « مصباحا » أرسل يعتذر عن الجيء .. ولم تجد بداً من أن تنصحها بأن تستسلم لمصيرها .. فمثل هذا الإنسان لا يعارض .. فقد جمع فى يديه سلطة المال والمنصب .. وربت على كتفها كأنها تودعها معلنة إليها .. أن عليها أن تواجه مصيرها بشجاعة تستمدّها من جرأة اليأس .. الذى يرفضه التعلق بآمال تلفظ أنفاسها ..!

وليلة الزفاف أركبها عربة تجرها الخيول وانطلقت بها إلى قصر « الكاشف » فى « طرة » .. حيث تسلمتها الجوارى ليعدوها للزفاف ، ودخلت غرفة الزفاف فإذا بها وحدها وأغلقت عليها الأبواب .. فإذا بها وجهاً لوجه مع رأس « مصباح » مغروسة فى « مزراق » .. غرس فى أرض الغرفة .. كانت العنق تبدو وكأنها قطعت منذ لحظة .. فكل ملامحه مازالت كما هى ..!

وأطلقت العروس صرخة .. خرج معها كل ما كان فى هيكليها من إنسانيات .. فقدت الأميرة بنت البلد النطق وما نطقت كلمة بعدها .. فقد ظلت مشدوهة مبهوتة .. تنظر إلى الرأس التى تحملق فيها ..!

أما العريس فلم يستمتع بانتقامه .. فقد هاجم الأمراء القادمون من الصعيد قصره فى نفس الليلة .. وهرب هو إلى « مصر العتيقة » .. ثم القلعة حيث لاذ بالبasha ..

وعاد « مراد بك وإبراهيم بك » وجلسا فى مشيخة المحروسة ونقى « مصطفى الكاشف » ولكن الخرساء « نبوية » ظلت قصبتها على جدران القصر المهجور فى « طرة » .

الحريم أيام المماليك



الحب له أجنحة

الحب له أجنحة

*** فى أول الأمر سمع صوتها .. بين ضجيج « الغورية » ، ماثت الأصوات ، وضجة « القيسارية » .. اخترقت سمعه نبرات أنثوية .. موقت من أذنيه إلى نخاع عظامه .. كانت ضحكاتها الصافية وحدها امرأة .. فالتفت من فوق فرسه .. ألقى ببصره داخل حانوت الصائغ .. كانت تقف مشغولة .. منهمكة فى فحص أنواع المشغولات ..

ارتعد الصائغ من نظره .. راعها ما قفز على وجه الرجل من اهتمام .. فاستدارت بكل جسدها نحو الشارع .. كان على فرسه فارها .. مطرز الملابس .. يبرز عنقه الرائع من جيبته .. يرمى الناس بنظرات من عينين واسعتين .. فخورا تياها بوظيفة « الكاشف » .. أهل عليها بوجهه المفرق فى البياض ، والاحمرار . واللحية السوداء التى تحيط به ، والأنف الشامخ الذى يقف كسيف يلمع سناه .. واحتواها فى نظرة .. بسامة الملامح .. فاتنة قسماتها .. مصرية الجبين ، والعينين .. قنواء الأنف .. تكشف وقفتها عن أعضاء متنافسة .. فياضة بالرغبة .. فى عينها نافورة أنوثة .. رائعة فى بساطة .. وجميلة بلا استعلاء .. ولأقل من ثانية .. تلاقت نظراتهما .. فغلبها الحياء ، وهزمه الجمال .. وهتف الصائغ ، سيدى « حمزة الكاشف » !

وتوقف الحصان .. وأشار الفارس إشارة بأصبعه إلى الصائغ .. خرج على الفور ، وترك الذهب دون أن يلتفت إليه .. وأسرع يلبي الإشارة ، فوقف بجوار الحصان فى خشوع ، ورفع رأسه يتلقى الأمر .. ومال الفارس .. فهمس إليه جملة أو جملتين .. فعاد الصائغ .. يفرك يديه طربا ، ومضى الفارس ، وخلفه الجنود من أتباعه .. لكن الفتاة اضطرب ما بين صدرها .. أحست بالإلهام أن الأمر يتعلق بها ، وعاد الصائغ فأمر لها ولوالدتها بمقعدين .. وفى محاولته إخفاء عرضه أفصح عنه .. لمعت نظراته من عينيه الضيقتين الختفيتين .. تحت حاجبيه الغليظين ، وقال .. يمكنك أن تشتري ما تشائين .. فكل ما تريده سوف يدفع ثمنه « الكاشف » حمزة .

أرتج على المرأة ، وأيقنت الفتاة من إلهامها .. حدث تصادم فى عواطفها .. فشلت فى تحديد ما يجب أن يرتسم على ملامحها .. لا دهشة خالصة ، ولا فرحة خالصة ، ولا غضب خالص .. ونظرت المرأة إلى ابنتها ، ونظرت كلتاها إلى الرجل ، وجمد كل شيء .. حتى الهواء الذى يسبح فى الحانوت .. ماذا حدث ؟ .. وما هو الاسم

الذى يمكن أن يطلق عليه .. وذعر الرجل .. فهو يعرف أن زوجها والد الفتاة من كبار العطارين ، وهم من عملائه منذ عشرين عاما .. لكنه لا يعرف إذا كانت الفتاة مخطوبة أم لا ..؟ وتردد وهو يسأل إذا كانت « العروسة » مخطوبة ..؟ فردت المرأة بذهول .. لا .. لكن لا أنا ولا هى أصحاب الأمر .. أنت تعرف جيدا غيرة الشيخ « حسن العطار » !!..



وعادت المرأة وابنتها ، وهما ترتجفان ، ولم تشتريا شيئا ، وحذرا الصائغ ألا يفتح فمه ..!! لكن الشيخ « حسن العطار » .. عاد من حانوته بعد صلاة العشاء ، وهو منشراح الصدر .. يداعب زوجته على غير عادته ، وحينما أقبلت تقول له إنها « جهزت العشاء » .. قال لها لكنى أريدك قبل العشاء .. لدى ما أقوله لك فتفرحين .. فلما أن تأكلى كثيرا أو تأكلى قليلاً ، ومضى إلى غرفته فتبعته إلى هناك فلما انفرد بها قال إن « حمزة الكاشف » جاء وخطب « عزيزة » .. وقد أعطاه الموافقة .. ألا يفرحها أن يكون زوج ابنتها « كاشف » الخط كله .؟! أحنت المرأة رأسها ، وهى تدعوه ، وتؤكد أن الأمر بيد الله ويده ، وأنها سوف تنجى إليه « بعزيزة » .. لكنى يقول لها الخبر بنفسه ، ولكى تقبل يده .. اعترافا بكل أفضاله ، ونعمته .. واندفعت وهى تخفى فرحتها ، وتحمد الله .. أنه لم يعرف أين ، ولا متى رأى الكاشف « عزيزة » !!..



كل الاستعدادات كانت تجري لتنتقل العروس إلى بيت الفارس .. كل ما حولها يفرح بها .. إلا هى لا تعرف كيف تفرح بنفسها .. هذا الفارس سوف يصبح لها .. اهتزت أعماقها بنوع من الغرور .. لا بد أنها جميلة جدا .. ليس فى « القاهرة » من هى أجمل منها .. ولو أنها غير جذابة .. لما اختارها « حمزة الكاشف » دون البنات جميعا .. وفى الغد سوف تنهال عليها الهدايا .. فالتاس جميعا يهدون « عروس » الكاشف .. تقربا له ، وتهيبا من مركزه .. وغدا يقفز والدها ليصبح شيخ العطارين !

لكن ليس كل هذا ما يشغلها .. إنها تقاسى وتتمنى حقا أن تنسى .. فى القلب جراح أحدثها هذا الحادث .. لا أحد يدري أن الخطبة .. قطعت الطريق على سنوات .. من الحب العذرى .. كانت بينها وبين « محمود » .. الشاب الذى يعمل عند والدها .. طالما تحدثت إليه ، وتحدث إليها .. عندما كانت صغيرة .. فلما كبرت لم يعد

يراها إلا خلصة .. لم يعد والدها يرسله إلى البيت .. آخر مرة رآها .. كانت فى فرح
لقريبة لها .. مدعوة مع أمها . وانسلت من جانب والدتها لتراه .. قالت له بعينها .. متى
يا محمود ..؟ وقال لها بعينه إن الفارق بينهما كبير .. إنه يحبها فقط كما يحب نجوم
السماء .. على يقين من أنها لن تهبط إليه ، ولن يصعد إليها .. وقالت .. لكنى أهبط
إليك يا محمود ..! فقال .. سلمت من الهبوط ، وأبقاك الله فى علاك .. أنت سيدتى
« يا عزيزة » ، وسوف تظلين سيدتى إلى الأبد .. قالت .. لكنى أحب الجلوس إليك ..
أحب السفر فى عينيك .. أود لو أنى بقيت العمر بين يديك .. فهل أنت أيضا تريدنى
معك ..؟ وهمس ومن حولهما الصخب .. أنا أحبك بكل عمرى .. بكل شقائى ..
بكل عذابى الماضى ، وبأسى الحاضر ، والقادم .. أنت غداً تتزوجين ، وتنسين ، وأنا
أتوسل إليك أن تنسى .. أما أنا فمهمتى أن أعيش أذكرك ولا أنساك ..!

لم يحبها كما اعتاد الناس .. بعينه .. ثم بقلبه .. ثم كان الهوى .. كلا .. فقد
كبرا والحب معا .. أحبها بكل جوارحه .. امتص غرامها بالأعماق .. كأغصان تشرب
من الساق .. ما شعر بالحب يغزوه .. فلما حيل بينه وبينها .. أضناه الحنين إلى رؤياها ..
ومضى يستحضر طيفها .. يطلبه فى أماكن اللقاء .. يبحث عنه فى حناياه .. أخيرا أدرك
أنه يسبح ضد العقل .. لو قال بحبه لكأن جريمته بشعة .. من قال إن حصاة ترقد فى
السفح .. تتطلع يوما إلى نجم فى السماء ..؟ وتضاف خيانة سيده إلى جريمة حب ..
فليكنتم حبه فى ضلوعه وليخنق هذا الأمل المولود سفاحا .. وليحيا شقيا تحت ظلال
اليأس ..!



أخذوها إلى « العرس » المحتوم .. زفوها وهى مستسلمة .. لا يد لها فيما يحدث ..
عشرات الصناديق ، وهى كصندوق بينها .. الليلة تعطى شبابها ، وكيانها ، وحياتها ..
« لحمزة الكاشف » .. ومن ذا يليق بها سواه ..؟ لابد من نسيان « محمود » .. لا
فائدة ترجى من ذكره .. من الخير له ولها .. أن يموت الأمل راضيا ، ويتحرر الرجاء وهو
سعيد .. حماية لها من الفضيحة . ورحمة به من العذاب ..!

وأصبحت فإذا هى زوجة « الكاشف » .. وأحاطت بها الجوارى البيض والسود ..
فى الحمام ، وبعد خروجها منه .. يتسابقن فى تزيينها لسيدهن .. ويطلقن بخور
الصندل ويسكبن العطور ، ويوقدن الشموع فى نهار الصباحية .. وجلست كأمريرة على
كرسى مرتفع وسط « الحرملك » ، وبدأت وفود القادمات للتهنئة خاملات الهدايا ،
وتسبق كل واحدة منهن الجارية الحبشية .. لتعلن اسم القادمة ووظيفة زوجها .. وقرب

صلاة الظهر .. اضطربن المهنتات .. علت أحاديثهن .. واقتحمت المكان أربع جاريات رائعات الحسن والملابس .. يحملن من الهدايا ما خف حمله ، وغلا ثمنه .. وصاحت الجارية الحبشية .. تهتف بنغم معين .. تدربت عليه .. أن « نفيسة هانم المرادية » قادمة .. وتطلعت المهنتات كلهن إلى الباب .. وكادت « عزيزة » تقفز من على مقعدها .. فطالما سمعت عن « المرادية » لكنها لم ترها .. لأنها المرة الأولى .. وفوجئت « بحمزة » يدخل ، وهو يسبقها .. يهرول بين يديها ، وطلعت على « الحرملك » .. فأضاعت كأنها قطعة شمس .. تواضعت لأهل الأرض .. مشيت فى تودة ووقار ، وبلا تيه أو دلال .. تحبى المهنتات بإيماءات من رأسها .. وانطلقت الزغاريد .. وزاد رأسها شموخا .. كانت « عزيزة » تراها تطول كل لحظة ، وهى تقترب .. فلما دنت منها .. مالت عليها فقبلتها فى جبينها ، وأمسكت هى بيدها تقبلها شكرا .. ثم التفتت تهنىء « حمزة الكاشف » ، وتطرى جمالها .. وأسرع يجيئها بمقعد بنفسه .. لكنها اعتذرت بمشغولياتها التى يعرفها جيدا .. فإن بعض أمراء القلعة .. سوف يزورونها بشأن المطلوبات التى فرضها « الباشا » على نساء الممالك الذين فروا إلى الصعيد .. مع « مراد بك وإبراهيم بك » .. فأقسم أن تشرب الشرابات ، وجىء لها بكأس من ذهب .. على صينية من الفضة ، وأخذ هو الصينية من الجارية .. ليقدم الشرابات بيديه .. تكريما لها .. !



وخرج موكب « نفيسة المرادية » ، وأكل الحقد قلوب نساء « حمزة » الأخريات .. فإن « ابنة العطار » سوف تتيه عليهن فخرا .. بحضور « المرادية » لتهنتتها .. لكن ذلك المجد لم تسعد به .. فقد بلغها أن « محمود » اعتذر عن العمل عند والدها .. سقط صريع مرض كاد يقضى عليه .. فلما شفى اعتذر بأن صحته لم تعد تقوى على العمل .. وسوف يبحث عن عمل سهل لا يرهقه .. وسرعان ما تسابق إليه تجار « المنطقة » .. كلهم يريدونه .. لأمانته التى هى مضرب الأمثال .. واختار أن يعمل عند الصائغ .. لم يكن يطمع إلا أن يراها يوما ما .. والصائغ إما أن يذهب إليها ، وإما أن تجيء هى إلى الحانوت ، وفى الحالتين .. سوف يربح رؤيتها ، وهى لا تقدر لديه بمال .. !

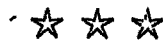
وقال له « المعلم » أن يستعد .. سوف يذهبان إلى بيت فى الخط .. ليس صدفة أن يعمل عنده بالذات ، وليس صدفة أن يأخذه إلى بيت « حمزة الكاشف » .. كل شىء يقع فى ملكوت الله بمقدار .. وكاد يرفض .. لكن بماذا يعتذر ؟ .. وأدخلهما خادما الحريم إلى أول « الحرملك » .. ثم عاد إلى مكانه .. وجلسا ينتظران « العروس » فقد كانت تريد بعض التعديلات فى هداياها الذهبية .. وطلعت « عزيزة » ووقعت عينها على « محمود » .. وحدثت فى الجواشيء .. لم يرها غيرهما .. عانقها بعينيه .. فعانقته ببصرها .. وألقت بنفسها عليه فى خيالها .. ثم تنبعت إلى أنها « هانم » ، وهما فى

خدمتها .. فأسلمت يدها إلى « المعلم » يحرك الغوايش ، ويقلب الخواتم ، ويستمع إلى ترجيحاتها وأخرج « محمود » العدد من كيس معه .. كما أمره « المعلم » .. وجلس يعمل ، وتفرغ هو مدعوا يبصره على مائدة جمالها الذى تضاعف .. وأصلح « المعلم » ما استطاع إصلاحه .. ثم استأذن فى أن يأخذ الباقي إلى الخانوت .. فإذا تم إصلاحه .. أرسله مع « محمود » .. وقامت « الهانم » فنادت إحدى الجاريات على خادم « الحرملك » .. فجاء ليقودهما إلى الخارج !!..

واعتاد « محمود » أن يجيء ، وأرضت كليهما لعبة إصلاح المصروغات .. فرصة يمسك يديها ويقبلهما بعينييه ، ويدنيهما من قلبه ، وهى تدرك كل شيء ، ولا أحد يدرك ما هما فيه من حولهما .. لكن الجوارى فطن إلى الحب ..

كان « محمود » يتطلع بعينين ساهمتين ، وكانت هى تجيب على أسئلته بنظرات أعمق ، وأبعد ، وأكثر أحلاما .. ونقلن الخبر إلى الزوجات الأخريات .. فراقبن العاشقين أياما متتالية .. وجاءت فرصة للانتقام .. فسقن الخبر إلى « حمزة » فى شماته .. فجبن جنونه ، وجاء يسألها عن صحة الخبر ، وسيفه مشرع فى يده .. فصاحت فيه لأنها الغيرة .. غيرة « الحيزونات » ، ورأى أنه كان متسرعاً .. لكنه قرر أن يؤدب الصائغ الشاب !!..

ما كان يغادرها حتى أرسلت جارية تكن لها الود إلى « محمود » تجذره ، وتبلغه ما حدث .. فلما طلبه فلم يجده فى الخانوت .. أيقن من صحة الخبر ، وجرى لينتقم من « عزيزة » فى البيت يريد أن يفضحها ، ويطلقها .. لكنها كانت اختفت .. هداها تفكيرها .. أن تهرب إلى حيث لا يستطيع أحد أن ينال منها .. وقادتها جارتها إلى قصر « نفيسة المرادية » فلاذت بها ، وقالت لها قصة حبها ، وكيد ضرائرها لها .. وطمأنتها « المرادية » وأرسلت إلى « حمزة » الكاشف .. فجاءها .. فهدأت خواطره ، ومازالت به حتى طلقها .. وبعثت إلى « محمود » أن يختفى من « القاهرة » نهائياً .. حتى تمضى أيام العدة .. ثم يقصد قصرها مباشرة وهى سوف تزوجهما إن بقيت على قيد الحياة حتى يومها !!..



وأقبل « حسن العطار » غاضباً .. فتلقته « المرادية » ومازالت به .. حتى أقنعت أن وجودها هنا خير لها وله .. فلا يعلم جيرانهم ما حدث ، و « حمزة » نفسه أحرص الناس على عدم إعلان فشله .. ومضت أيام العدة .. وأرسلت « عزيزة » تبحث عن « محمود » فى كل مكان .. لكنه لم يظهر ، ولم تعثر له على أثر .. وقالت بعض الأفاويل .. إن « حمزة » عهد إلى بعض رجاله فأخذوه .. وقتلوه ، وألقوه فى النيل ..

وأعلنت الحداد .. وهدتها الصدمة .. وأحست أنها خسرت والدها ، وخسرت بيتها ، وانحسر عنها عقلها .. وبدأت زحلتها مع الجنون .. وازدادت « المرادية » إشفاقا عليها .. ملأتها الكآبة ، ولم تعد تتكلم .. كانت تنظر فقط نظرات شاردة .. فلا تطلب طعاما ولا شرابا .. إلا إذا قدموه لها !!..

بعد عام كامل .. دخلت جارية تقول « للمرادية » على الباب رجل اسمه « محمود » يريد مقابلتها .. كان آخر ما يخطر ببالها .. فلما أدخلته .. سألته من هو ؟ فقال لها .. إنه يريد « عزيزة » .. لم تصدق المرأة .. وأرسلت إلى المذهولة .. فجاء بها .. فلما نظرت إليه لم تحرك ساكنا .. أما هو فقد أمسك بيديها .. يبللها بدموعه ، ويصيح فيها .. أنا محمود .. محمود يا عزيزة .. وشيئا فشيئا بدأت تعود من رحلتها .. تبدلت نظراتها .. شدت من قامتها .. عادت إليها بعض ملامحها صرخت .. « محمود » ، وراحت تبكى !!..

وقال « لنفيسة المرادية » إنه رأى أن يجزيها بخدمة خاصة .. كما أسدت إليهما معروفها .. فقد أخذه رجال « الكاشف » ليقتلوه فرشاهم بكمية من الذهب .. فتركوه في النيل .. والتقطته مركب مسافرة إلى الصعيد ، وهناك التقى « بمراد بك » ، وجاءها منه برسالة .. وأطلقت الزغاريد ، وأرسلت في طلب « القاضي » وزفت « عزيزة » إلى « محمود » !!..

★ ★ ★

الحرم أيام المصائب



قِيَمَةُ الْقُلُوبِ

قوت القلوب

*** لم يجد حوله سوى ظلمة .. ليل لا آخر له .. يخيم على الجميع .. حتى بعد طلوع الشمس .. كأن ظلمة « مصر » كلها تختفي داخله وحده .. حينما تطلع الشمس على الجميع .. أوشك أن ينهار وأن يفقد عقله .. فيهيم على وجهه .. مخلفا وراءه كل شيء .. يترك كل هذا العز والأبهة فيمضى .. هربا من الحيرة التي تأكله لحظة بعد لحظة ..

يريد اللجوء إلى شاطئ يجد فيه الأمن .. يأمن فيه على نفسه ، وأهله .. يمزقه الشوق إلى الاستقرار .. سنوات طويلة ، وهو يسكن الخيام ، وينام على ظهر جواده .. ذهابا وإيابا من « الجزيرة » إلى الصعيد .. فى مواكب « شاهين بك » أستاذه ورب نعمته ، الذى يجرى هو الآخر فى ركاب « إبراهيم بك » لكن « شاهين بك » احتال على « محمد على باشا » حتى أقره على الفيوم كما كانت له أيام « إبراهيم بك » و « مراد بك » .. فلما عاد إليها وأرسى بها قواعده .. أرسل إلى « إبراهيم بك » وجاءه يسعى من الصعيد واجتمعا سويا .. فنادا فى الأمراء . والجنود ، والعربان الذين اتبعوهما .. إنهم فى طريقهم إلى إجلاء « محمد على باشا » عن « مصر » .. بعد أن ملكه المصريون أمرهم ففصل بينهم وبين المماليك المصرية أصحابه وخذع العلماء والأعيان .. ففرق بينهم ، وضرب بعضهم ببعض وأبعد « السيد عمر مكرم » الذى أليسه أصحابه الحكم وكتب مع العلماء إلى السلطان ليؤليه على « مصر » ..

لكن الجيوش القادمة منهكة من الصعيد .. عسكرت فى « الجزيرة » و« دهبور » واسترخت أجسادهم وجاءت الرسل تحمل الأنباء من البر الشرقى .. لتؤكد أن الباشا لديه جيش من العساكر الأتراك والأرناؤوط وجهاز من المدافع والمعدات مالا قبل لكل المماليك به وأن « محمد على » لم يكن بالغافل عن هذا الوجه من وجوه المقاومة .. فاستعد له بالعدة والعدد ، ولم ينس أن يرسل لهم « مصطفى الكاشف المورلى » ليستميل بعض الأمراء ، حتى يهد صمودهم ويفكك تماسكهم ووعد الذين يتخلفون عن « إبراهيم بك » أو « شاهين بك » من الأمراء وينضم إلى الباشا بالإنعام عليه بكل ما كان له فى « مصر » من ديار وأملاك عدا لإنعامات جديدة ورواتب وملابس له ولرجاله وجنوده وجرايات تجرى عليه وعلى جواريه وعماله وعبيده ووضع ثلاثة من أمراء الألفية الذين كانوا تحت إمرة:

« شاهين بك » أيديهم فى يد « مصطفى المورلى » وعاهدوه سرا وهم « نعمان بك » و« أمين بك » و« يحيى بك » وقد كانوا القوة الضاربة عند « شاهين بك » المهيمن على البر الغربى حتى « القيوم » .

وأحس هو أن الأمراء الثلاثة يبحثون عنه لينضم إليهم .. لكنه ترك معسكره ولم يقل لرجاله إلى أين وجهته ودخل إلى خيام الحريم وقال للحرس ألا يخبروا أحداً أنه فى الداخل وألا يسمح لأحد بالدخول قبل خروجه .. حتى لو كانت سيدة من هوائم الباشوات أو من الجوارى أو من الخدم .. قال ذلك وأكدده للحرس .. لأنه لا يأمن حيل « محمد على » أو « شاهين بك » على حياته أو الأمراء المارقين الثلاثة !..

واختار من خيام الحريم .. خيمة « قوت القلوب » فهى زوجته وأم ولده وموضع أسراره .. يرتاح إلى مشورتها ويجد عندها دائماً مخرجاً لكرويه .. لرجاحة عقلها .. ورقة إحساسها .. والحنان الذى يبدو فى عينيها .. وما كادت تقوم إليه وتحف به وهى تستقبله .. حتى ألقى بنفسه على السرير منهوك القوى .. فنظرت إليه النظرة الحانية التى يعشقها منها .. وقالت فى صوت يسيل رقة وعذوبة .. إنه ليس على ما يرام وإن فى بال الأمير ما يشغله .. فلماذا لا يلقى بأعبائه بين يديها .. فإما أن تحمل عنه بعضها وإما أن تجد له بمشورتها مخرجاً وقد اعتادت مشاكله ، واعتاد تلقى الحلول منها !..

وخلعت عنه العمامة والسيف والعدة ، وألقت بنفسها بين أحضانه .. فأحس بالظلمة التى تغمره تتبدد والأنس يعود إليه بعد الوحشة وراح يعترف لها بأنه غير قادر على الحياة ويخشى أن ينالوه بالأذى إذا لم ينضم إليهم ولا يستطيع أن يهرب من ضميره إذا خان « شاهين بك » !..

ودفعت « قوت القلوب » أصابعها فى شعر رأسه الغزير وراحت تصب فى أذنيه .. ما تريد وكانت تلك عاداتها حينما تريد أن تروضه .. قالت له إن وعود الباشا كلها كاذبة وإن الرجل الذى غدر « بالسيد عمر مكرم » لن يتورع عن الغدر بأى مخلوق حتى لو كان ابنه ، وإذا كان الأمراء الثلاثة .. قد سولت لهم أنفسهم الخيانة والانضمام إليه وصدقوه لقاء نعمة يسبغها عليهم أياماً .. ثم ينقلب عليهم فيحطمهم ويذهبون جزاء خيانتهم وغباوتهم .. فليكن هو الأمير الذى لا يخون .. حتى لو مات لا قدر الله .. مات وهو راض عن نفسه ..

كان فى حاجة إلى أن يسمع هذا الحوار الذى يدور بينه وبين نفسه من « قوت القلوب » .. منها هى بالذات .. فهى روحه التى بين جنبيه وهى نفسه التى يتنفس بها وهى ضميره الذى يفكر به .. ونفض همومه مع حيرته .. حينما اتخذ القرار .. فنام .. وفى الصباح بدأت حركة غير عادية فى المعسكرات التى ترابط فى صحراء الأهرام ..

معسكر « إبراهيم بك » ومعسكر « شاهين بك » وسارت طلائع « إبراهيم بك » إلى معسكر « شاهين بك » وخرج « شاهين » لملاقاته واستقبله بما يليق به كحاكم مصر السابق وقائد العصيان فى الصعيد ضد « محمد على » وأستاذ كل الأمراء المماليك المصريين ..

وحينما هبط « إبراهيم بك » من على جواده . سار على قدميه وضح تقدم السن عليه .. وتلقاه « شاهين بك » بما يليق به كأستاذ ودخل معه خيمته .. وبدا « إبراهيم بك » فى محاولة جادة ليضيق شقة الخلاف بين « شاهين » وأمراءه المنشقين وأبدى رغبته فى أن يعطى المماليك الأمراء ما يريدون من أمواله الخاصة .. حتى لا يفرؤا إلى « محمد على » الذى يستدرجهم واحداً بعد الآخر .. لتنفك رابطتهم وليخرب تجمعهم وليعلن أنه قضى على المماليك والأمراء المصريين ولكن « شاهين » شرح له أن الأمراء الثلاثة تمردوا عليه ويطلبون منه أن يقاسمهم حكمه ما بين « الجزية والفيوم » ويطالبونه بثلاثة أرباع ما جمعه من أموال وخيرات من هذه البلاد .. وأنه سوف يولى غيرهم إماراتهم ولا أمل فيهم فقد امتلأوا بإغراء « محمد على » .. فقد تأكد له أنهم استضافوا « مصطفى الكاشف المورلى » ثلاثة أيام وكان موفدا إليهم من « محمد على » وحاول الاجتماع بالأمراء المنشقين ولكنه فوجئ بأنهم جمعوا رجالهم وحريمهم وعبيدهم وعبروا النيل من عند « الصف » ثم ساروا إلى « بنى سويف » حيث تلقاهم عامل « محمد على » هناك وحدد لهم اليوم الذى يعودون فيه إلى « مصر » حيث كانت حاشية الباشا فى استقبالهم وذهبوا إلى القلعة فتلقاهم الباشا وخلع عليهم الخلع والهبات وأنعم عليهم بالدور الواسعة وخصص لهم الرواتب ولرجالهم وأجرى على عبيدهم وحريمهم الأرزاق والهدايا !!

وقصمت تلك الضربة ظهر الأمراء المصريين .. فقد أعلن « محمد على » أن مقاومتهم انتهت وأن « إبراهيم بك » وأمراءه ومراد بك وأمراءه « قد دالت دولتهم وأن على جميع الأهالى والعربان والكشاف وأبناء الناس والأعيان ألا يقدموا إليهم أية مساعدة وأن من يأويهم أو يساعدهم بالسلاح أو المال لا يلو من إلا .. نفسه .

ودخل الأمير على « قوت القلوب » يقول لها .. إن « مصر » خلت « لمحمد على » وإنه استقبل الأمراء المنشقين وأجزل لهم العطاء وإن « شاهين بك » قرر العودة إلى الفيوم « وإبراهيم بك » قرر العودة إلى الصعيد وإنه يخاف عاقبة البقاء فى معسكر « شاهين بك » !!..

لكن « قوت القلوب » هدأت من خاطره وأكدت له أن « محمد على » سوف ينقض على الأمراء المنشقين بعد أن يطمئن إلى أنه جردهم من قوتهم .. سوف يسلب عليهم تلاميذهم ليقتلوهم كعادته .. فهو لابد أن يشتري تلاميذهم ويتخلص منهم .. أما هو فخير له أن يظل مع « شاهين بك » إلى النهاية .

ونادى المنادى فى المعسكر أن التحرك إلى الفيوم سوف يبدأ مع أول ضوء لنهار الغد وظل العمال طوال الليل يتجهزون على أضواء المشاعل .

ومع أول ضوء .. كانت القافلة تسير وفى مقدمتها كوكبة من الفرسان يقودهم الأمير زوج « قوت القلوب » ويتوسطهم الأمير « شاهين بك » وكان واضحا أن الهزيمة والقهر وسموم الهموم تطحن الرجل الذى خانه ثلاثة من أعز رجاله .. وما كاد يحل عصر ذلك اليوم ولم تكن القافلة قد وصلت إلى منتصف الطريق .. حتى ترنح « شاهين بك » على جواده وتأوه يطلب من يساعده .. لكن الأمير لم يدركه .. فسقط من على جواده وجيء بالطبيب وسرى الذعر والرعب فى القافلة وأفردت للمريض الكبير الذى فاجأه المرض خيمة وبقي الطبيب معه .. لا يدخل عليهما سوى الأمير !..

وتوقفت القافلة عن المسير والكلام والطعام .. فقد سبق الحزن بالكارثة وقوعها .. ولم يستطع الجميع كظم الهواجس التى اجتاحتهم .. فالتفتوا حول الخيمة رغم الأوامر المشددة بعدم الاقتراب منها وعلا نحيب النساء وأجهش الرجال .. « شاهين بك شاهين بك » .. وخرج الطبيب .. ثم دخل .. ثم خرج .. ثم وقف أمام العلم الذى ينصب أمام خيمة القائد .. فنزعه من مكانه وقبله .. فأطلق الرجال والنساء الصراخ عاليا وطوى الطبيب العلم فوضح للجميع أن « شاهين » انتهى !..

وقفز الأمير « يوسف » فتقدم إلى الطبيب ورفع العلم وقبله ووضع على سيفه .. وأحنى رأسه له .. فبايعه الجميع بالهتاف .. وأقسم أنه لن يخون « شاهين » ولن ينضم إلى « محمد على » وأنه سوف يحكم « الفيوم » . وكانت « قوت القلوب » ترقب كل ذلك وكأنها تقول له ألم أقل لك ؟!..

الحريم أيام المماليك



العقوى والأغصان

الهوى والأغصا

*** فجأة قامت القيامة .. رأى بعينه الحساب والميزان .. كل شىء يتوعدة .. يرسل إليه نظرة شامته ساخرة . ليست عيون الآدميين فقط .. بل الحيوانات أيضا .. خيوله يحس أنها تحتشره .. هبط يريد أن يركب حصانا يهرب عليه .. أجفلت منه الخيول .. الخدام . السياس .. تركوه .. فقد السيطرة على كل شىء ، وأى شىء ..

حتى أعضاء جسده .. يدها ترتعشان .. ساقاه تصبطكان .. غادرته قدرته على التفكير .. تخلت عنه قدراته التى اشتهر بها فى الحبث ، واللؤم ، والجرأة ..! عاد الذل القديم يقتحمه ساخرا منه .. زالت دولتك « يا عبد العال »!..

الفرنسيين ينسحبون .. وجنود الأمراء تدخل « القاهرة » من كل باب .. وأبناء البلد .. ينظرون فى شماتة ، ويسخرون من طواير الدواب المتقاطرة .. التى تحمل أمتعة الفرنسيين ، وهم يغادرون « القلعة » .. فى طريقهم إلى خارج « مصر » .. وقد أذاعوا عصر اليوم .. أن من يتعرض لهم أو لمن يريد الخروج معهم من المصريين والأجانب الذين تعاونوا معهم .. فإنه يعرض نفسه للعقاب الشديد .. الذى قد يصل إلى حد رمى العنق ..!

وهو كان من الذين تعاونوا مع الفرنسيين .. لقد كان آخر « أغا ومحتسبا » صدر له فرمان فرنسى .. بعد أن رفض الكل التعاون معهم .. وقفز « عبد العال » إلى منصب أغا القاهرة ومحتسبها .. فأفزع الجميع .. وكان يخرج فى الموكب ، والجنود تجرى من خلفه وأمامه .. وأهل الخط على الجانبين .. يلعنونه فى قلوبهم . ويصفقون له بأيديهم .. ويعجبون من هؤلاء الغزاة .. الذين لا يتعاملون إلا مع أمثال « عبد العال » ..! كانت أحيانا تملأ عيونهم الدموع من الذل ، وأحيانا تملأ عيونهم الدموع ضحكا .. وهم يرون الأمير « عبد العال » .. الذى شاهدوه وهو يعمل عند تجار « الحمزاوى » .. حمالا .. يحمل البضائع على ظهره بدلا من الدواب .. مقابل أرغفة يأكلها وخرقة تستر جسده .. تدور الأيام دورتها .. فإذا به حاكم القاهرة الحقيقى .. يطارد الناس فى مساكنهم .. لكى يجمع الغرامات ، والمفروضات للفرنسيين ، ومن لا يدفع يجلد ، ويسجن ، وتنهب قصوره ، ويبيع متاعه ، بأمر « عبد العال » ..!

أشفق عليه .. « نصر الله المترجم » .. بعد أن حمل له بعض المتاع إلى منزله .. وألح على زوجته يحرضها .. أن تتشفع له عند المترجم « الخواجة نصر الله » .. لكى يجد له

عملا .. وكان أن قدمه « الخواجا » للأغا « مصطفى » .. فجعله من جنوده .. ثم قربه لنشاطه فى التجسس على الآخرين .. وأسرع يترقى حتى صار وكيلا « للأغا » ، ومات الأغا ، « والمحتسب » فى الطاعون الذى اجتاح البلاد آخر أيام الفرنسيين فى « مصر » .. فلم يجدوا من يتولى الأغوية ، « والاحتساب » غيره ، وبذلك جمع فى يديه سلطة الشرطة ، وسلطة فرض الضرائب على المبيعات .. وأسعارها .. وأصبح له موكب يسير فيه ككبار الممالك ، وخرج بعض التجار من « القاهرة » .. أقسموا ألا يعودوا إليها إلا بعد أن يجلو « عبد العال » عنها .. فقد كان من العار عليهم أن يقوموا عليهم .. هذا الذى كان يحمل أمتعتهم ، ويجرى وراء ذوابهم التى يركبونها .. مقابل ملء بطنه بالطعام .. رأوا فى ذلك مهانة لم يروها فى دخول الفرنسيين الأزهر !!

الذين اقتربوا منه .. كانوا على شاكلته .. لم يقبل التعاون معه .. إلا من هم فقدوا كل القيم ، والمثل بلا مروءة أو نخوة يخشون بها الله أو يستحون من الناس !

استغل وكالته « للأغا » .. فاشتري قصرا ، وزينه وأحاطه بالأشجار .. وأطلق على نفسه اسم الأمير « عبد العال » .. كان ينادى به فى قصره .. واتخذ لنفسه مجلسا من الأراذل ، والأوباش ، الذين كانوا يحملون إليه أسرار البيوت .. فلا تصل هدية من الريف . ولا يكسب تاجر مكسبا إلا كان له فى ذلك نصيب .. وكان يلمح فى عيون الذى يتعاملون معه .. بعض الاحتقار الذى يغلب على الاحترام .. فيمعن فى لؤمه وخبثه .. مدركاً أن الذين يبدون له الاحترام .. يحتقرونه فى نفس الوقت ويدفعه ذلك إلى مزيد من التعسف فى تنفيذ الأوامر . واقتضاء الديون مضاعفة الثروة مرة ولحسابه ومرة لحساب الحاكم العسكرى « للقاهرة » ..!

وذات عصر ، وهو فى صدر الوكالة .. يجلس بين حاشيته الصفوة المختارة .. من الضائعين ، والأوباش من أمثاله .. أقبلت ضجة ، وبرز بعض الجنود ، وهم يسوقون أمامهم حمارين عليهما أمتعة ، وامرأة فى منتصف العمر .. يكشف خمارها الأبيض عن جمالها المتحدى .. وملامحها التى تؤكد انتماءها إلى الغجر .. لكن كساءها كان ينبىء عن أنها من طبقة الأميرات .. وأدى أحد الجنود التحية ، وقال له إنهم ضبطوها تغادر بيت الخواجا « نقولا » وهى تسوق الحمارين ، وقد وضعت فوقهما كل ما غلا ثمنه ، وخف حمله ..!

« والخواجا نقولا » .. هو صانع أسطول « مراد بك » .. الذى منحه كل شىء ، وأباح له ركوب الخيل ، واقتناء الجوارى ، وقد وشى به بعضهم إلى الفرنسيين بعد أن هرب « مراد بك » إلى الصعيد .. وألقوا القبض عليه ، وصادروا أمواله لكن هذه السيدة .. ضببطت وهى تهرب هذه الأموال .. وقد رفضت أن تفصح لهم عن شخصيتها ..!

تأملها « عبد العال » طويلا .. وأحس أنه ليست المرة الأولى التى يراها فيها .. وحاول أن يتذكر .. لكنه فشل .. وسألها عن حقيقة التهمة المنسوبة إليها .. لكنها قالت فى فصاحة .. إنها تفضل لو أن الأمير الوكيل تكرم عليها ، واستمع منها على انفراد .. فإن لديها ما يهمه .. فقام من مجلسه ، وانتحى بها فى « المقعد » الداخلى .. وتخففت عن أرديتها ، وخلعت خمارها .. فقال لها على الفور .. إنه رآها قبل ذلك .. فهل تذكر هى متى كان ذلك ؟.. وابتسمت المرأة ، وقالت له .. إنها فى عجب من ضعف ذاكرته .. وتسلب الصوت إلى ذاكرته .. فأحيا مواتها .. وعادت تقول :

هل نسيت « هدى » « هدى » .. يا عبد العال .. « بنت الحمزاوى » !..

وصاح « عبد العال » على عادة الحرافيش .. وقال :

— تذكرتك : « هدى » بنت أم الفوال : أملك بتاعة الحمص ! تذكرها ، تذكرته .. قالت له إنها خدمت فى بيت أحد التجار .. ثم تزوجته .. لكنه مات .. فطردها أولاده ، وألقت بها الأيام فى طريق « نقولا » فأخذها إلى قصره .. ثم صارت محظيته ، ووشى الناس به إلى « مراد بك » .. أنه قد اتخذ محظية مصرية .. فهدده إن لم يطردها بالحبس . فعرض على الزواج فقبلت ، وأعلن « نقولا » إسلامه .. فلما ذهب « مراد بك » ودخل الفرنسيون .. رجع « نقولا » مرتدا .. فرأيت أن أغادره .. وقررت الهرب .. ولكن قبل ذلك ، وشيت به عند الفرنسيين .. فقد كان يرأسل « مراد بك » .. وسلمت أحد الخدم رسالة جاءته من « مراد بك » ليقدّمها للفرنسيين .. فأمرؤا بمصادرة قصره وحبسه لكنى حاولت أن أحصل على ما أعتقد أنه من حقى !..

وخشيت أن أقول للجنود إننى « هدى » فيقتلونى .. فقد أهدر المشايخ دمي عندما تزوجته ..!! وإنهم لم يرغمونى على الحجى .. لأننى كنت أسوق الحمارين نحو قصرك أريد اللجوء إليك !..

انتفض « عبد العال » يسألها عن معنى جملتها الأخيرة قائلا :

لماذا .. و « القاهرة » أمامك ؟

أفرغت على صوتها نبرة أنثوية ذات معنى ، وهى تقول :

— لم يكن أمامى إلا سيد الناس .. الأمير « عبد العال » .. وكيل الأغما .. الذى كان يتمناني ، وأتمناه أيام الشباب .. ولا أظنه قد نسى ؟..

ياللمرأة اللقيمة والحبيثة .. بهذه البساطة .. تنكأ جراحه .. إنها عذبتة فى صباه بالاحتقار أكثر مما عذبتة بالصد والهجران كانت تسخر منه ، كانت تقول له دائما إنها ترفض أن تتزوج بغلا .. كل مؤهلاته قوة ثور ، وعقل حمار .. يحمل الأمتعة والبضاعة

للناس .. حقا كان يطاردها بنزق الصبا ، وطيش المراهقة .. وكانت دائما تصده بقسوة وتعيره بفقره .. مع أنها كانت تجلس مع أمها التي تبيع « الحمص » المسلوق للتجار ، ورواد « الحمزاوى » ..!

لاشك أنها كانت صاحبة أنوثة مبكرة .. أنوثة أجهضت نموها الأبدى العابثة التي كانت تعبث بجسدها صغيرة .. تفجرت المرأة فيها مبكرة ، وقبل أن تكتمل أعضاء الأنوثة فيها .. فبرز نهداها ، وتكور جسدها وامتلأ نصفها الأسفل بحيوية دافقة .. زادت من فتنتها .. واليوم هى فى قمة النضج ، وقد جاءت تسعى إليه .. تلقى بقلبها وجسدها تحت قدميه .. لكن لماذا تذكرت الآن فقط ..؟

وخفق قلبه فى صدره كطائر يضرب بجناحيه .. لكنه لم يخرج عن وقاره ، وضبط نفسه أكثر مما يحتمل الموقف ، وقال لها :

- لا أظن أنه الحب ولا الهوى .. « ياهدى » ..؟ فقولى الحقيقة ؟

فسألت فى رقة ، وهى تقول فى كلمات تنسكب من فمها كعطر يسيل من قنينة .

- لقد شغلتك المناصب فلم يحرقك الهوى .. أما أنا فكنت .. ثم سكنت ، وقالت فى تأوه لا تجعلنى أعترف أكثر من ذلك .. فلى أنوثة نصفها حياء .. وبدلا من أن يلين هذا الصخر .. أغرق فى الضحك ، وتقدم نحوها يقول فى سخرية .

- أنا أعرف منك بنفسك .. أنت لا تحبين ، وأنا لا أعشق ..!

وأحسست أنه صدمها بعبارته .. فهشم أحلامها ، وهى ليست كما حاولت أن تدعى .. وإذا فلتكلمه باللغة التى يتقنها وتتقنها .. وقالت له فى لهجة أشد سخرية .

- معك حق .. لقد جئت إليك .. لأنه لم يعد فى « القاهرة » من هو أسفل منك .. ثم تمهلته وهى تقول :

- إلا أنا .. لهذا جئتك وسوف تقبلنى .. فالبيض الفاسد .. أنت تعرف الباقي .. أغرق فى الضحك جدا استلقى على قفاه . وقام إليها فأخذها بين أحضانها ، وخرج إلى المجلس .. فصرف الناس . وأمر الجنود بأن يسوقوا الحمارين إلى الإسطبل ، وأعلن بعد

أيام أنه سيعرس بها .. !

لم تكن حلمه القديم فقط .. بل كانت هى المرأة الوحيدة التى يمكن أن تكون زوجته .. فرغم صموده سلم المجتمع .. إلا أن الناس حاصروه .. فقد استطاع أن يشتري عشرات الجوارى ، واقتنى المحظيات .. لكنه عندما أراد أن يتزوج .. اعتذر له الجميع ..

كان ماضيه المنحط ، وحاضره القدر فى معاونة الفرنسيين . يقفان أمامه عند العائلات فيعتذرون له فى أدب خوفا من بطشه .. وكان ذلك يجعله يتمزق ، ويشعر بالاحتقار لنفسه .. من أجل ذلك رحب « بهدى » ، والاقتران بها .. فقد جاءته فى الوقت المناسب ..!

هو رجل منبوذ .. لأنه حصل على احتقار كل المصريين .. وهى أشد نبذا .. بل هى امرأة هدر دمها ، وحلت عليها اللعنات من كل المسلمين .. وليس أليق بالرجل المنبوذ من المرأة المهذرة الدم .. لكنه هو وهى على قمة الناس .. فقد تصاعدت به الوظائف .. لا سيما بعد أن مات « الأغا » وتولى هو ، وأصبح له ركب تهتف به الجماهير من على الجانين ..!

لكن الدوامة انتهت .. أسرع به أيامه ، وأيام الفرنسيين نحو النهاية .. وها هو الآن يواجه الماضى كله .. يسد عليه طرق النجاة .. الفرنسيين يرحلون ، وقد اتفق مع « بليار » على أن يرحل معهم .. كل من تعاونوا مع الفرنسيين ضد الشعب ، ويخشون غضبة الناس .. يمكنهم أن يرحلوا مع الفرنسيين .. وقد اشترى قبعة وراح يجربها أمام المرأة .. إنه يشعر الآن .. كأنه يقف على ماء .. وإنه يغوص شيئا فشيئا .. وقد جمع كل أمواله على حمار ، وساقه مع حمير الفرنسيين .. وهو الآن يلقي النظرات الأخيرة على الجمادات التى شهدت مجده فى الأيام الأخيرة ..

دخلت عليه « هدى » .. أذهله أنها لم تجمع حاجياتها .. صاح فيها أن تسرع .. أن تتعجل الأمر فلم يعد أمامها من الوقت إلا القليل .. لكنها وقفت تجاهه حملقت فيه بعينين طالما عذبتة رموشها .. قالت :

- لن أذهب معك .. لن أترك « مصر » ..!

صاح فيها :

- لكنك ستموتين .. سوف يفتكون بك « يا هدى » ..

قالت فى ثقة :

- حتى لو كان ذلك .. لكنهم لن يقتلونى .. لأننى لم أختهم .. أنت فقط الذى خنتهم .. أما أنا فخنت نفسى فقط ..!

فوجيء « عبد العال » بالأمر الوحيد الذى لم يكن فى حسبانته .. كان دائما يقظا ذكيا كالثعلب .. لأول مرة فى حياته يفاجأ ، ولا يفاجيء الناس .. كان يعول على « هدى » كثيرا .. كان يرى فيها سنداً له فى بلاد بره .. كان يعد لها الوطن الخاص به يهرب بها إلى حيث يريد .. لكنها فجأة تتخلى عنه .. وتتركه وهو فى حالة ضعف لم تمر

به ، وهو يحمل البضائع على ظهره !! ومد يده يتحسس « البرنيطة » التى على رأسه .. وأحس أنه فى حاجة إلى الجلوس .. كأنه ضرب على أم رأسه وجلس يبحث عن كلمات يقولها ..

هدى .. رغم أنى أعرف سفالتك .. إلا أننى لم أكن أتوقع أن تتخلى عنى !.. قالت بجدية لم يعهدا فيها :

إنك ماض .. تغادر « مصر » .. وأنا لا أستطيع أن أهرب من « مصر » .. قد يقتلوننى .. قد يحرقوننى .. قد يمزقوننى .. لكنى فى النهاية سأدفن فى « مصر » !.. أيقن بالفشل .. إنها ليست لها جرأته .. ليست لها قدرته .. لكنه ماذا يفعل ؟..

لن يستطيع أن يتركها ، ولن يستطيع أن يمضى بدونها .. إن الأيام القادمة لن تكون إلا هوانا .. وماذا فى الغربة غير الهوان ؟.. و « هدى » كانت وطنه ، وكل أهله .. ولن تقتنع مهما حدثها .. مهما قال لها إنه فى حاجة إليها .. إذا فليأخذ بعضه ويرحل .. ووقف يجرد قدميه .. حاول أن يتماسك حتى لا ينهار أمام المرأة .. التى شددت قامتها كأنها تستقبل الموت فى شجاعة الشهداء .. ومضى خطوة .. ثم أخرى وأوشك أن يصل إلى الباب .. لكنه استدار .. وهم أن يفتح فمه ليتكلم .. لكن دموعه خنقته ، وأجهش بالبكاء المسموع .. وتحرك نحوه « هدى » فألقى بنفسه بين أحضانها !..

رفع وجهه نحوها .. كانت ملامحه تتوسل .. كان كطفل يزعونه من بين أحضان أمه .. لكنه كان ينزع نفسه .. وظلت « هدى » شامخة . لا تريد أن تضعف .. ومضى .. وصوت خطواته يصفع السكون .. خطوة . خطوة .. وحاول أن يصل إلى الإسطبل .. لكنه لم يجد السائس .. ولا الخدم ولا الخيول .. وغادر القصر فى صورته التى تنكر عليها .. ولحق بطواير الفرنسيين .

أما « هدى » فقد بقيت فى القصر .. على استعداد لمواجهة الجماهير الثائرة إلا أن المظاهرات .. اندلعت فى الفجر تهاجم الخونة الذين هربوا مع الفرنسيين ، واشتعلت النار فى كل القصر .. وفشلت « هدى » فى النجاة ، وماتت كما أرادت .. احترقت تحت الركام الذى صار عليه القصر .. وحينما رفعوا الأنقاض وجدوا « المشاء الله » التى كانت تحملها فى عنقها .. وكان أشد ما أذهل الناس هو أنها لم تهرب مع « عبد العال » .. تساءلوا جميعا .. لماذا أثرت الموت على الهرب مع « عبد العال » ؟ .. لكنهم لم يجدوا جوابا .. وحملوها إلى مدافن الصدقة . !!



الحريم أيام الطفولة



الحريم

الجراح

الخوف هنا حاكم مطلق .. حاشيته الفزع .. والرعب له كل السلطات .. القلق يعربد .. يخلع الأفئدة .. والعدل صريع فى الطرقات .. القاهرة مذعورة .. يحنى القهر هامتها - بالكاد تستر عورتها .. تنعى ما فات .. وما هو واقع .. وما هو آت !!.

*** المنادى يخترق الغورية والناس يحيطون به وهو ينادى باللسانين العربى والتركى .. يعلن أن عسكر السلطان عادت مع « نصوح باشا » وأنهم سوف يطردون الفرنسيين وأن كبير الفرنسيين وفصيلة معه قضى عليهم بأسلحة الثوار فى « القرن » .. أما من بقى منهم فى القاهرة .. فلا بد من أن يحمل كل فرد فى الشعب المصرى سلاحه .. حتى لو كان عصا من الجريد أو حجراً من الطوب ..

كان المنادى يرفع عقيرته بالنداء يثير الحماس .. والقاهرة قد امتلأت بأصناف شتى من الجنود .. ابن البلد ينظر فى دهشة .. إلى هؤلاء الغزاة الذين تطأ أقدامهم أرض مصر ويتنفسون هواءها ، ويأكلون خيراتها .. ثم يعيشون فيها فساداً يوماً غزاة ويوما مدافعين .. وابن البلد ضائع بين ظالم قديم استباحها بمئات الأسباب وظالم قادم يزعم كذباً .. أنه جاء لرفع الظلم عن وادى النيل وبر مصر .. كلاهما المستعمر القديم والجديد باسم الدفاع عن عرض مصر وشرفها .. يريد من ابن البلد أن يحارب معه !!.

جراح مفتوحة فى قلوب أهل القاهرة .. ودموع مسفوحة فى لياها المظلمة بعضها يفيض وبعضها يفيض ..!

فجنود الفرنسيين لم يقض عليها فى « القرن » .. بل هم الذين قضوا على الثوار من فلاحين « القرن » الذين انخدعوا بكلام « نصوح باشا » .. بعد أن تركهم وجاء فاراً مع بقايا عسكره إلى القاهرة .. وكان أن وصلت طلائع الفرنسيين إلى القاهرة بعده بيومين .. ووقفت منهم طائفة خارج باب النصر الحسينية وأغراهم ما فى زاوية الدمرداش من خيرات فنهبوا .. ثم تسللوا إلى قبة الغورى فأتوا على كل ما فيها من تحف ومباخر وقناديل بعضها من الذهب وبعضها من الفضة وبعضها من النحاس الجيد الصنع ..

وأقبلت تجريدة من جنود الأرناؤوط .. كانت فى قرى الوجه البحرى تجمع الذخيرة وبعض الغلال والمواشى كتكاليف للحملة وحينما حاولت دخول القاهرة لتعزيز موقف « نصوح باشا » .. تصدت لها بعض سرايا الفرنسيين التى كانت ترابط فوق التلال وبعد معركة استمرت عدة ساعات تبادلوا فيها الرصاص .. شقت التجريدة التى كان قوامها

ثلاثمائة جندي شوارع القاهرة .. وابتهج الناس لوصولهم .. رغم وجود الفرنسيين في قلب حي الأزبكية .. وارتفعت معنويات الذين كانوا يرتعدون خوفا ورعبا وزحفوا بالنباييت والأسلحة البيضاء على معسكرات الفرنسيين لا سيما مخزن ذخيرتهم الذي كان في « بولاق » ..

وقاد الثورة هناك الحاج « مصطفى البشتيلي » .. الذي وقف يخطب في الناس ويحرضهم على الفتك بالفرنسيين .. فقد جاء الباشا رسول خليفة المسلمين السلطان ووصلت عساكر الموحدين من الأرنأوط الذين كانوا في الريف وملأ الحماس الجماعي أهل « بولاق » وتحت الهستيريا الجماعية .. اتجهت الجموع إلى المعسكرات والمخازن الفرنسية .. وأحس الجنود الذين كانوا يحرسون المخازن بالخطر فأطلقوا النار من بنادقهم ولكن الجموع تكاثرت وفر الجنود الفرنسيون وتركوا المخازن وأغرى ذلك أبناء البلد بهم واستبد بهم الانتصار .. فقتلوا من تصدى لهم واستولوا على المخازن وأفرغوها من الغلال التي كان الفرنسيين قد جمعوها لتكون طعاما لهم ولحيواناتهم .. وبعدها أقاموا المتاريس هنا وهناك وحصنوا « بولاق » ووقفوا يحرسونها !!..

وفي اليوم الثاني جاء كبير الفرنسيين ووزع جنوده فحاصر « القاهرة » حصارا شديدا .. ووصل هو إلى مركز قيادته في الأزبكية .. واستطاع الحصار أن يمنع الخروج من « القاهرة » أو الدخول إليها !!..

وبدأ ضرب الأحياء الثائرة بالمدافع والقنابل وتساقطت القنابل على البيوت الآيلة للسقوط وأخذت في سقوطها معها معظم البيوت الأخرى وعم الناس الرعب فهربوا من البيوت إلى الشوارع فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار .. وتوقف البيع والشراء وارتفعت أسعار الحبوب واختفى الطعام والشراب وزاد الطين بلة أن عساكر الأرنأوط راحوا يتخاطفون الأكل من الأهالي ، ولم يستطع أحد الوصول إلى نهر النيل لجلب المياه .. أما الآبار فقد عسكر حولها الفرنسيين لاصطياد الأبرياء الذين يدفعهم عطش ذويهم إلى جلب الماء !!..

وخلال ذلك الجهاد والجهد الذي شق على المواطنين .. تصل الأخبار إلى بعض المجاهدين التي تقول إن « مصطفى أغا » المستحفظان سابقا يأوى في داره بعض جنود فرنساوية .. وجن جنون الأهالي وهجموا على داره التي كانت تقع في « درب الحجر » وعثروا على العساكر فرنساوية فقتلوا بعضهم وهرب بعضهم أما هو فقد أوثقوه بالحبال واقتادوه إلى « عثمان كتحدا » الدولة الذي كان من رجال « نصوح باشا » .. فسلمه للجنود الإنكشارية الذين خنقوه ليلا ودفنوه في باب النصر .. ونصبوا مكانه « شاهين كاشفا » الذي كان يسكن الخرنفش !!..

واستمر الضغط من جانب الفرنسيين .. كانت ظروفهم أحسن بكثير .. فقد ضيقوا الحناق على « القاهرة » ولم يعد فى الأحياء صفيحة ماء .. فهم يمنعون الوصول إلى نهر النيل ، واختفت الأقوات من الأسواق .. والقاهرة فى أحشائها الأطفال والنساء والمرضى والجرحى وهؤلاء من الصعب بل من المحال أن يصبروا على الجوع والظمأ ..

وانفلت العيار عند الجميع وتطاول الغوغاء على الرؤساء ، وضاعت الصدور وجاء « عثمان بك البرديسى » موفدا من قبل كبير الفرنساوية يطالب بالمفاوضة والصلح على شرطين .. أن تتوقف المقاومة وفى مقابل ذلك يخرج الباشا ومعه عساكره ومن يريد متابعتهم من المماليك المصرية وأن يعالج من كان مجروحا أو مريضا بواسطة الأطباء الفرنساوية وجلس « البرديسى بك » إلى المشايخ ثم أخذهم إلى صارى عسكر الفرنساوية ليستمعوا منه إلى الشروط التى يعرضها ...!

وعاد الشيوخ من عند صارى عسكر وشاع فى الناس أمر الصلح والمهادنة .. فقامت قيادة الغوغاء وشتمو المشايخ وقالوا عنهم كلاما كثيرا واتهموهم بأنهم قبضوا ثمن ذلك الصلح ذهباً .. فلم يكن فيهم من يدرك عاقبة الأمور ولا نهاية ذلك الحصار ولا يشعر بمن يعانون ويتألمون .. لاسيما وبعض العامة كانوا ينتفعون من استمرار الحصار .. لكن العقل تغلب وحاول أهل الرأى البدء فى الصلح .. لكن الأخبار جاءت من « بولاق » تقول إن البولاقية رفضوا عرض الصلح عدة مرات وفى آخر مرة ذهب إليهم ضابط فرنسى يركب جوادا ويده ورقة وهو ينادى . أمان . أمان . أمان . سوا .. سوا .. لكنهم هجموا عليه ، وقتلوه .. وعادوا إلى خنادقهم فتحصنوا بها ..

وتوقفت المفاوضات ، وإذا بسيل عرم يجتاح القاهرة .. وتمتلىء الحارات والأزقة بالمياه ، والأحوال وينشغل الناس بتخفيف الوحل ويتتهدد الفرصة صارى عسكر الفرنساوية ويهاجم القاهرة فى أكثر من مكان .. من باب النصر والعطوف والحسينية وحاول الأهالى الصمود لكن المفاجأة أذهلتهم وخذلهم الأرض الموحلة ..

وأشعل الفرنسيون النار فى منازل كثيرة وعشرات الحوانيت فأيقن الناس بالخراب والدمار ..!

أما فى « بولاق » فقد كانت هناك معركة حربية تأديبية بمعنى الكلمة .. إذ هجم الفرنسيون عند الفجر من ناحية نهر النيل وبوابة « أبو العلا » ودار القتال بالمدافع وآلات الحرب وأشعلوا الحريق فى أكثر من جهة حتى يهرب الأهالى من النار فيقعون فريسة فى أيدي الفرنسيين .. وتحصن البعض فى مسجد السلطان أبو العلا وظلوا يقاتلون حتى أفنأهم الفرنسيين .. وغصت شوارع « بولاق » بالقتلى ولم يعد فيها مكان لمرور الناس واستولى الجنود على كل شىء فى بولاق حتى ملابس الرجال والنساء وقبضوا على الحاج « مصطفى البشتيلى » دلهم عليه الناس الذين كان يقودهم .. ورأى القائد الفرنسى أن

تكون نهايته على أيدي رجاله .. فقال لهم بواسطة المترجم إنه السبب في كل ما أصابهم من مصائب .. من أجل ذلك سوف يعفو عنهم .. ويسلم إليهم الحاج « مصطفى » لكي ينتقموا منه وكان أن جروه مقيدا وبعد أن طافوا به شوارع « بولاق » انهالوا عليه ضربا بالنبايت حتى لفظ أنفاسه ..!

كان المستعمر يريد أن يلحق أبناء البلد درسا لا ينسونه .. حتى لا يتصدى بطل يقود المقاومة .. لكن ذهب « البشتيلي » وظهر في كل مكان ألف « بشتيلي » وخرج الفرنسيون وبقيت القاهرة ومات كبير الفرنسيين « كليبر » وعاشت مصر !! .

★ ★ ★

الذين أتوا بالمسألة



على باب القلعة

على باب القلعة

الجمعة السادس من محرم ١٢٢٦ هـ القاهرة

من ابن مصر المغلوب على أمره .. إلى من سيقراً هذه السطور كاتنا من كان فى
أى زمان ومكان أنا لا أكتب باسمى ولا باسم عائلتى ولا باسم الحى الذى نشأت
فيه ؛ لكنى أكتب باسم ما أرى الآن من سماء القاهرة .. ويقدر المساحة التى أطل
عليها وتطل على غرفتى بمنزلى أكتب من رائحة البارود التى تجثم على القاهرة ..

من رائحة الدم .. من رائحة العفن .. من الموت الذى يتصاعد من الأجسام
والرؤوس الملقاة فى « الرميلى » تحت أقدام « القلعة » أغمس قلمى فى عشرات العيون التى
يمثلها الأطفال ، وهم يلعبون بالرؤوس المبعثرة عند باب زويلة فقد ضرب الباشا الوالى
« محمد على » ضربته اليوم .. ضربها بجراة الشياطين وحماقة الثيران وبطش الكفار ..
استدرج المماليك بحجة الاحتفال بتنصيب ابنه « طوسون » أميراً على الحملة المسافرة إلى
« الحجاز » وأرسل فى البلد زبائنه ينادون ألا يتخلف فى ذلك اليوم أحد من المماليك
والأعيان وأولاد الناس ومن يتخلف فلا يلومن إلا نفسه ، على الجميع أن يرهنوا عن
إخلاصهم « للباشا » وللباب العالى وأن يرددوا الخلع السنية والباشية والأحزمة السلطانية
ويحضرون على ظهور الخيول أو الجمال أو البغال .. كل طائفة بمالها من صلاحيات
وعلى المشاة أن يسيروا فى صفوف منتظمة وأن ينتظروا جميعاً صباح الجمعة أمام باب
القلعة إلى أن يفتح لهم .. فتدخل طواير المماليك الخيالة منهم والذين يركبون
الجمال .. ثم رجالهم المشاة ، وبعدها طواير التجار والأعيان وأولاد الناس !..

وفى ذلك الصباح حاولت زوجتى « أنيسة » أن تصرفنى عن الأمر الذى اعتزمته ؛
لكنها فشلت قالت لى إننى كاتب « جراية » صغير فى الجامع الأزهر وإن أمثالى لا مكان
لهم فى هذه « المهرجانات » فلن يلتفت إلى أحد ووظيفتى ليست بذى حال .. حتى إذا
تفقد « الباشا » الكبار لفت نظره الشريف عدم وجودى .. وعارضت زوجتى ابنة شيخ
النحاسين .. بأنها جاهلة لاتعرف لاهى ولاوالدها متطلبات الوظائف وماذا يجب على
الموظف الصغير مثلى أن يفعله حتى يصبح من الموظفين الكبار .. إن وجودى فى مثل هذا
« المهرجان » سوف يتيح لى أن أرى « الباشا » ويرانى ، وقد يتسم القدر لى فأصافحه
يدا بيد فى زحمة المصافحين ، وقد تحدث المعجزة فيكلمنى وأكلمه . فبرسلنى
« كاشفاً » أو « صنجقاً » هكذا تسمى الفرصة .. أما إذا لم أذهب فمن: يرانى ؟ ! إن
الذهاب إلى « القلعة » كله مكاسب .. ولم تعجبنى نظرة زوجتى الوقحة التى ردت على

بها .. وكأنها تهزأ من أحلامي وتسخر من أمنياتي .. ولم أقم وزنا لاعتراضاتها ..
فهى ضيقة الفكر .. جاهلة .. لأعلم لها بمثل هذه المسائل .. أما موظف مثلى ..
يشرف على « الجراية » وعلى مخصصات « بقال » المشايخ ولا يمكن أن تفلت حفنة شعير
« لبغلة » شيخ الأزهر إلا إذا وقعت على صرفها .. من كان فى هذا الموقع الخطير
مثلى .. فإن حضوره مثل هذا الحفل يعد ضرورة هامة لتدعيم منصبه !!..



وأمام هذا الغباء الذى أبدته حرمانا المصون .. رفضت أن أطلعها على بقية
خطتى .. مضيت أرتدى ملابسى من الجوخ والصوف .. أعدت خصيصا لمثل هذه
« المهرجانات » وأخرجت « القاوق » الطويل الذى يحدد وظيفتى فى الجامع وخرجت
من بيتى فى « العطوف » سيرا على الأقدام .. حتى جئت « الباطنية » وقصدت المعلم
« منصور الشمبرى » فى أن يعيرنى « بغلته » وأن يسرجها بسرج من الفضة ولم يخيب
المعلم رجائى .. ففى كل أسبوع أبيع به بقايا « الجراية » بأبخس الأثمان كغذاء لخيول
عرباته .. كما أننى أشتري منه « البغال » التى يحتاج إليها الشيوخ وأجزل له العطاء ..
مادام الرجل فى كل مرة لا ينسى أن يحتفظ لى بنصيبى .. وماكدت أبدى رغبتي له ..
حتى أسرع يصدر أوامره إلى العاملين عنده .. وفرغت من شرب القهوة معه وقمت
فركبت « البغلة » « المسروجة » واخترقت حارة الروم صاعدا إلى « القلعة » لايشك من
يرانى لحظة فى أننى من الأعيان أو على الأقل من أولاد الناس ! !

وراحت « البغلة » تتهاذى بى .. أخترق « باب الوزير » والأحلام الوردية
تراودنى .. فقد أدخل « القلعة » وأنا كاتب « جراية » وأعود بأمر « الباشا » الوالى
« صنجقا » على الجمالية من يدرى . ؟ أو كاشفا على « القليوبية » أو أفندياً على
الضربخانة التى تصبك النقود . ؟ وهبت نسمة باردة قادمة من ناحية القلعة .. لفحتنى
وأنا فوق « البغلة » فانتعش خاطرى والعامية يرمقونى باحترام شديد ويجرون من أمامى
يوسعون لى الطريق !!..

وما كدت أطل على « القلعة » وكنت أظن أننى وحدى الذى جاء مبكرا .. حتى
وجدت العجب .. فقد كانت طوابير المماليك بخيولهم المطهمة وملابسهم المزركشة
والسيوف التى تلمع بينهم يسدون الطريق وهم يتزاحمون أمام الباب الكبير وآخرهم فى
منتصف أرض باب « الوزير » وعددهم لا تحيط به العين وحولهم عبيدهم وجنودهم
وأوقفت « البغلة » لكى أختلط بهم وأجتاز صفوف الأعيان والتجار وأولاد الناس فقد
كنت أعرف أن المماليك هم الذين سوف يسمح لهم بالدخول أولا ؛ لأنهم رأس البلاد أما
معاذهم فهم الذبول وأقحمت نفسى وسط الرؤوس .

وظللت أتسرب وأحتال حتى وقفت على يمين المقدمة ليس يميني وبين الباب إلا بضعة صفوف .. وماكاد يفتح الباب إيدانا بالدخول وعزفت فرقة تركية كانت على الباب نوبة موسيقى حتى اندفعت مع المندفعين ودقات الطبول وسنايك الخيل وهذا العدد الضخم من المماليك الخيالة يخترق الباب وأخذني المنظر الذى لم أحلم به يوما ما .. وسبقنى بضعة صفوف لكنى حرصت على أن أكون فى الوسط وكدنا نصل بطلائعنا إلى قلب « القلعة » ونجتاز « حلق » الباب الثانى .. وفجأة وجدنا الخيول تقف وسمعنا صوت صراخ الباب وهو يغلق خلفنا .. ثم استدار الفرسان بالخيول يريدون العودة لكن الباب قد أغلق وانهاى الرصاص علينا من البنادق التى فى أيدي الجنود الذين يربطون فى أعلا السور واستمر إطلاق الرصاص وفزعت الخيول تصطدم ببعضها وتلقى بفرسانها الذين صرعهم الرصاص وبعض الخيول أصيبت فجن جنونها من الآلام وراحت تتصرف بجنون الحيوان الجريح وأقبلت فرقة تعمل السيوف فى رقاب من بقى على قيد الحياة ولم يكن هناك بد من ترك « البغلة » وجريت على قدمى إلى داخل « القلعة » وخلعت « جتى » المزخرفة وبقيت بالقفطان فقط فأصبحت وكأننى أحد خدام « القلعة » وجريت إلى باب مفتوح أحتمى به فإذا به نهاية أبواب المطبخ السلطاني فكمنت داخله حتى ينجلي الموقف واستمرت المعركة أشهدا من مكاني كأننى فى كابوس فقد كان هناك بعض الجنود المشاة يندفعون كالثعالب بين الجثث والخيول المجدلة ويجزون بعض الرؤوس من أجساد المماليك المعروفين ثم يعود كل منهم بحمله وهو فرح يجرى بها ناحية القصر حتى يحصل على مكافأة من « الباشا » !!..

كنت أتكوم فى بقعة مظلمة خلف الباب بعد أن اجتزته وطالعتنى بقايا الأجولة وصناديق فارغة محطمة وأوان نحاسية ضخمة لم تعد تستعمل ورائحة العطن والقدم تفوح حتى لأخشى أن أنظر خلفى .. وإذا بيد تنشب بعنقى فأهب فرعا أوشك أن أصرخ دون وعى لولا أن رأيت اليد تترك آثار أظافرها فى عنقى ثم تقفز أمامى كان حيواناً فى حجم الكلب ؛ لكنى أدركت أنه فأر من فئران المطبخ وبقيت أسترد أنفاسى فشغلنى عن ذلك الذى أمامه موجة الذعر التى اجتاحتنى . ورغم ذلك فقد شدنى منظر جندى تركى وهو يحمل رأس « شاهين بك » المملوك تقطر دما . ويجرى بها من الرحبة الوسطى إلى بهو الأعمدة فى القصر حيث كان ينتظره الباشا الوالى تأكدت من الموت .. أنا الآن فى رخابه وقد أكون ميتا لكن المفاجأة جعلتنى لا أشعر به وعلى أحسن الفروض إن لم أكن قد توفيت فهى دقائق وبلتقى بى مخبول من هؤلاء الخبايل فىرمى عنقى بسيفه أو يجرب فى مقتلنى طلقه رصاص ؛ لكنهم من المؤكد أنهم لن يجزوا رأسى لأن الباشا لا يعرفنى لست من المماليك العظام ! ..

بقيت منعزلاً في هذا السجن الذي اخترته لنفسى حتى لا أموت وأمامى تجرى هذه المذبحة وما أكثر الممالك الذين أعرف صورهم ؛ ولكن لأعرف لهم أسماء وقد رأيت رؤوسهم وبها شواربهم محمولة في أيدي الجنود يتسابقون بها إلى « الباشا » وقر في ذهني أنني لابد أن أكون مقتولا وكل هذا الهديان هو مقدمة السكون الأبدى واشتقت إلى هذا السكون الذي سيريجني من عذاب الذعر والجنون الذي أنا فيه ؛ وتمنيت الموت دفعة واحدة فسكت وحاولت أن أغمض عيني لكن يدا أخرى أطبقت على عنقي من الخلف فخرجت عن صمتي واندفعت إلى الباب ووجدت نفسى خارجاً أجرى كالجنون وأخذني جندي فدفعني إلى داخل المطبخ لكنني تشبثت به وطلبت منه أن ينقلني فقد ظنني أحد العاملين في المطبخ . فلما حاولت أن أفهمه لم يفهم فقد كان تركيا لا يجيد لغتنا . كان يحملني في وجهي فاستعنت بيدي أفهمه ؛ لكنه ظل يحملني في خشيت أن يظن أنني من الممالك فقلت له أنا لص حرامي جئت أسرق مطبخ السلطان ثم في لحظة يأس دفع بي مرة أخرى داخل باب المطبخ وأغلقه عليّ ومضى . . !

لست أدري على وجه التحديد كم بقيت في المطبخ لكن أظن أنني بقيت دهرًا فقد أفقت بعد فترة وجدت السكون يخيم على كل شيء حولي وأرسلت بصرى من خصاص الباب فوجدت الظلام يغطي كل شيء وأيقنت أنه ليس أمامي الآن إلا أن أفتح الباب وأن أخرج أسير ناحية الباب الكبير إذا كان مفتوحاً ولم يعترضني أحد خرجت ؛ وإذا كان مغلقاً أو اعترضني أحد الجنود سوف أقول له إنني من اللصوص وإنني تسلفت لكى أسرق شيئاً من المطبخ .

عالجت الباب حتى فتحته كان الظلام شديداً والمشاعل هناك بعيدة على الأسوار واتجهت ناحية الباب وآثار الدماء مازالت على الأرض أحشها في بطن نعلي وكانت ثلة من الجنود تقف عند الباب بالمشاعل بعضهم على خيول وبعضهم يقفون على أقدامهم مضيت حتى اقتربت منهم فلم يسألني أحد ورسخ في ذهني أنهم لابد أن يسألوني عند الباب لكنني بلغتهم وجاوزتهم فلم يكلمني جندي .

اعتقدت أنني ميت ولذلك فهم لا يرونني باللكارثة لقد أصبحت شبحاً وعلى ضوء أحد المشاعل تأملت نفسي في القفطان الذي تمزق وأصبح بلون الأرض ورأسي المعصوب بالحزام الذي كان على القفطان ورأيت ظلي على الأرض فلم أشك أنني من الأحياء ومضيت في طريقي بينهم وبعد أن مررت بأخرهم سمعت صيحة زلزلتني .

يا ولد يا فلاح ..

توقفت .. كيف ؟ لأدري والتفت خلفي كان الذي ناداني على ظهر جواد يبدو من شكله أنه كبيرهم قال لي آخر ما كنت أظن أن يسألني عنه .. أنت متجاوز . . ؟

هل هذا وقته وماذا يريد منى . . ؟ لم أجد مفرا من الإجابة بنعم فسألنى : وهل لى أولاد . . ؟. وقلت نعم فقال : وهو يضحك ويشير إلى « قفة » كانت بجوار الجدار خد دى علشان أولادك يافلاح ..

ولم أصدق كانت قفة صغيرة من سعف النخل ممتلئة بالبلح فأخذتها على كتفى وأنا لأصدق فأغلب الظن أنهم اعتقدونى من المستخدمين فى قصر القلعة وانحدرت منها إلى باب الوزير لايطالعنى أحد تقريبا سوى بقايا المارك على الأرض وأحيانا على الجدران تهدى وتهشما أو بقايا دماء أراها لو صادفنى أحد المشاعلية ماشيا .

وقطعت درب الدليل متجها إلى « حيضان الموصلى » لأجتاز « الباطنية » إلى المشهد الحسينى وقبل أن أصل إلى مسجد على بك طالعى عند زاوية العميان أحد الجنود صاح فى بلهجة خشنة ولد يافلاح . . !

فتوقفت فتقدم منى وأنزل القفة من على كتفى فلما رأى مافيا من بلح دب يده فيها فأخرج منها مادفعه فى فمه ثم طلب منى فى خشونة أن أضعها بجوار الجدار وأمضى وكانت أشياء كثيرة بجوار الجدار فمشيت وأنا أقول فى نفسى بضاعتهم ردت إليهم مضيت إلى المشهد الحسينى والمؤذن ينادى للفجر . . ! !

فى البيت كانت زوجتى وحولها بعض أهلها من النساء وكلهن قد اتشحن بالسواد كانوا يستعدون لإقامة الحداد على دخلت دون أن أكلمها فقد سألتنى ألف سؤال فى دقيقة واحدة وآخر جملة قالتها لى لعلمهم عينوك فى وظيفة ميت قتيل . . ! !

لكنى أمسكت بالورق والقلم وشرعت أكتب هذه السطور .. فلما أكملتتها .. هممت أن أدفع بها إليها لكنى تذكرت أنها لاتقرأ ولاتكتب لقد توظفت فعلا لكن فى وظيفة كاتب يسجل آلام مواطنيه لعل الأجيال تقرأها وترحم علينا .. !!

★ ★ ★

الحرم أيام المماليك



الشمس دائما عالية

الشمس دائما عالية

* * * « لعن الله المماليك ، وأصلح حال الأمة المصرية » بهذه العبارة اختتم المنشور الذى بعث به الفرنسيون إلى المصريين .. فقرأه عليهم المشايخ ، وعلقت منه عشرات النسخ على نواصى الشوارع .. فى محاولة لبث الطمأنينة ، ولشر السكينة .. بين القلوب المفزعة ، والعيون الزائغة ، والأفئدة المخلوعة ..

فمنذ ثلاثة أيام ، والمماليك ، والأمراء ، والأغنياء .. يفرون من « المحروسة » كأنما داهمتهم الكارثة .. يولون الأدبار .. يحملون من متاعهم ما يستطيعون ، ويتركون ما يرهقهم حملة .. أبناء البلد ، وأصحاب الحرف ، والدخول المحدودة .. هم الذين بقوا .. على الاعتاب .. أو على المصاطب .. أو فى مداخل البيوت .. تتقطع أنفاسهم ، وهم يشهدون « المحروسة » .. تنقياً الذين كانوا يجثمون على صدرها .. ويوحى صرايحهم على الفوز بالفرار .. إنها سوف تحرق بعد أيام .. بأيدي « الفرنسيين » ؟ ..

لم تكن الوطنية فقط هى التى أمسكت بالذين قبعوا .. بل لعب الفقر الدور الأول ، والعجز عن الحصول على بغال أو جمال أو خيول للهرب عليها .. فقد بلغ ثمن الحمار الهزيل أضعاف الأضعاف .. أما الحصول على الركائب الأخرى فكان ترفاً .. لا يحلم به ابن البلد .. وثمة شئ آخر .. هو أن سكان الأزقة لا يعرفون لهم بلداً سوى « المحروسة » ، ويشعرون أن الموت سيدركهم إذا خرجوا منها .. كالموت يدرك السمك إذا غادر الماء ..!

ولهذا ركبوا جميعا القلق ، وضيق ذات اليد .. وباتوا ينتظرون ما يأتى به الغد .. فى استسلام .. يعانون اليأس فيه الرجاء ، ويستنبتون شجاعة مجهضة للقاء « الفرنسيين » والمقاتلة إذا قاتلوهم .. أما إذا كانوا كما ادعوا فى « المنشور » ، ولا هدف لهم إلا طرد المماليك من « البر المصرى » لكى يكون خالصاً لأبنائه أولاً .. ثم للسلطان ثانياً .. فإن الله فى هذه الحالة يكون قد كفى المصريين شر القتال ..!

لكن الذين غادروا « القاهرة » فى اليوم الثالث من « الزلزلة » .. ما كادوا يضرئون فى الصحراء ، والقفار .. حتى طلع عليهم الأعراب ، وكانوا قد علموا بورطة الهائمين على وجوههم .. فهاجمهم فى خسة ، وجردوهم مما يملكون .. حتى ثيابهم نزعوها من عليهم .. وقتلوا العبيد من الحراس الذين قاوموهم والعبيد الذين تصدوا لهم .. يحاولون حماية الحرم .. وعادت بعض القلول المهزومة .. يجرون خلفهم العار ، أو امتلأت

نفوسهم بالجراح المريعة .. واحتشدت الأفواه بالمرارة ، والقلوب بالحسرة .. وبعضهم كان يستحى أن يدخل مهزوما نهارا .. فيترقب الليل .. ثم يزحف مستترا بظلمة الليل ..!

هرب « إبراهيم بك » إلى الشرقية قاصدا « غزة » ، وفر « مراد بك » إلى الصعيد .. مع مماليكه الأربعة آلاف الذين قتل بعضهم بمدافع « الفرنسيين » فى معركة « إمبابة » واحترق بعضهم فى الأسطول الذى كان محملا بالذخيرة .. وكان يربط عند « مصر القديمة » فلما سقطت عليه قنابل « الفرنسيين » اشتعلت فيه النار ، وظلت عشر ساعات متصلة .. ظن أهل « القاهرة » أن الجزء الجنوبي تحول إلى أكوام من التراب ، وأن « الفرنسيين » يعيدون فظائع التتار ..!!

غير أن كل ذلك الرعب لم يفت فى عضد .. الصعاليك الذين اهتملوا الفرصة ، فقد كان مافى صدورهم من حقد على المماليك .. أكبر من كل ذلك الهول .. فاندفعوا يهجمون على قصورهم .. ينهبونها ، ويخطفون ما عجز المماليك عن حمله ، ولم يكن بالقليل ..!

لم يكن الحقد وحده هو الذى يقود وإنما كان الجوع أيضا .. كان إغراء المال الذى ذهب عنه صاحبه .. فقد أغلقوا القصور على كثير من وثير الفراش .. ورائع التحف ، وبعض الغلال ، والبن ، والسكر ، والحريم والجوارى ، وكان الصعاليك لا يجدون الدراهم ، وإذا وجدوها لا يجدون الطعام ..!

وبينما كان « فتوح البنهاوى » فى حانوته فوجيء بالدخان يتصاعد من قصر « سليمان بك أغا الكاشف » الذى خرج مع « مراد بك » للقاء « الفرنسيين » عند « إمبابة » وكانت الأنباء قد وصلت تقول إنه ألقى فى « النيل » هربا من قسوة القتال ، ومملوك آخر كان اسمه « إبراهيم الصغير » وقد تأكد غرق « إبراهيم الصغير » بعد إخراج جثته .. أما « سليمان أغا » فلم يعرف أحد مصيره ..!

وللوهلة الأولى خفق قلب « فتوح البنهاوى » .. ارتفعت ضرباته .. كان الدخان يتصاعد منه .. لم يكن يهمه « الكاشف » .. بل ربما لبرهة أحس بالشفى .. ولم تكن تهمه التحف ، ولا الثروة التى تحترق .. شىء واحد فى ذلك القصر .. انخلع من أجله قلبه .. ذلك أن « شمس الضحى » ابنة « الكاشف » كانت تعيش فى القصر .. ويخشى أن يصيبها مكروه ..!

وقفز من مكانه .. فقال لجاره « عزوز النشوقاتى » .. أن عليه أن يلقى باله إلى حانوته .. ريثما يطمئن ويعود .. قلبه يحدثه .. أن « شمس الضحى » فى خطر ..!

وشيعه « عزوز » بنظرة رثاء ، ومصمص شفتيه أسفا .. على العاشق الذى مات حبه فاحتفظ بجثته لا يريد أن يدفنه .. فمنذ شهور كانت « شمس الضحى » فى موكب

صغير من زميلاتهما .. موكب لم يضم سواها ، وزميلتين ، وجاريتين إحداهما بيضاء والأخرى حبشية .. كانت تحمل الطعام والثياب .. كان الموكب فى طريقه إلى الحمام .. وعرج الموكب على حانوت « فتوح » ليشترين منه بعض ما يلزمهن ..

ومن النظرة الأولى إلى عين « شمس » لم يعرف ماذا حدث له على وجه التحديد .. حاول وعجز واستسلم للعجز .. ثبت بصره فى ليل عينيها .. وخيل إليه أنه يعيش راحة المكدود فى ظلمة الليل ، ويخاف خوف السائر فى الليل وحده .. واجتاحه الحذر الذى يجتاح الذى يهوى من حالى .. وطالت اللحظة كأنها الدهر .. فلما أرخت أهدابها تتقى نظرتة الثاقبة .. أوشك أن يصرخ ، ورفع يديه .. فقد أيقن أن الدنيا ستطبق عليه ، وأنه سكن فى ليل عينيها ..!

ثم تنبه إلى أنه بائع ، وأنها أميرة فى فتياتها .. فعاد إلى وعيه ..!

ولم يكن ما أحست به الفتاة بأقل مما أحس به .. وطوى كلاهما أحاسيسه داخل تجاويف ضلوعه .. فقد تكون المسألة لا تعدو الانبهار .. الذى يصحب دائما اللقاء الأول .. لكن الأسبوع الثانى أكد ، وضاعف ما حدث فى اللقاء الأول .. واستمع إلى صوتها ، وهى تحدته .. وكان الموكب هذه المرة فى عدد قليل .. لم يصحبها سوى جاريتها ، وراح اللقاء يتكرر كل أسبوع .. وسأل « فتوح البنهاوى » نفسه ؟ ماذا حدث له .. وماذا حدث فيه ..؟

أحس أنه لابد أن يشكو ما به إلى « عزوز النشوقاتى » فهو منه بمثابة الوالد .. فمنذ أن حل فى الحانوت مكان والده ، وانقطع عن الأزهر بعد موته .. « وعزوز » يأخذ بيده فى التجارة ، وهو يستشير فى كل شىء .. بل إنه كان يعرف كل أسرار والده التجارية .. حتى الديون التى له ، والتى عليه .. « عزوز » لا ينظر إليه إلا على أنه ابنه ..!!

وحينما فرط مافى أعماقه « لعزوز النشوقاتى » .. استمع الرجل فى حذر .. لم يكن الكلام كله جديدا عليه .. كان يعرف العنوان فقط .. ولكنه بعد أن استمع إلى التفاصيل .. ملأ فتحتى أنفه بكمية من السعوط .. ثم قال له .. إن « شمس الضحى » ابنة « سليمان بك الكاشف » أمها مصرية من الحسينية .. كان قد تزوجها .. أيام أن كان جنديا ، وهى ليست ابنته الوحيدة .. فله خمس بنات من زوجات أخريات ، والخوف فقط قد يجىء من أنه يكون قد ادخرها ليزوجها من مملوك مثله .. أو .. أو يرشو بها « كتحذا » فى شكل زواج .. أو يطمع لها فى مملوك كبير القدر « كمراد بك » مثلاً ..!

لكن العاشق رفض هذه الاحتمالات ، وأقنع « عزوز » بأن موافقة « سليمان بك »

واقعة لا محالة .. وأن عليه فقط أن يتفضل بالذهاب معه .. لطلب يدها ..! ورغم شكوك « عزوز » إلا أنه استطاع أن يقنع بعض الرجال من الأعيان فى الخط لكى يرافقه فى الرحلة الخطرة .. وأعد « فتوح » هدية تليق بالمناسبة ، وأرسلها مع أحد عماله .. ضمنها كل شىء .. حتى الشمع والبخور ، ومختلف أنواع العطور ..!

واستقبلهم الكاشف « سليمان بك » فى مجلسه .. ومعهما « محمود الملا » شيخ الحياوية و « سعيد جمل الحمل » زعيم العائلة التى تتوارث قيادة جمل الحمل ، وعلى الماواردى « كبير تجار الخط ، وفاتحه « عزوز » باعتباره أكبرهم سنا فى طلب يد الأميرة « شمس الضحى » « لفتوح البنهاوى » « زينة التجار » ، والذى قضى سنوات فى الأزهر .. ثم حل مكان والده فى التجارة ..!

وأغرق « الكاشف » فى الضحك حتى استلقى على قفاه واقشعرت أبدان الرجال ، وأحسوا أنهم يسبحون فى عرق بارد .. فلما انتهى من الضحك ، ومسح الدموع التى ازدحمت بها عيناه .. نظروا إليه ينتظرون الجواب .. فأغرق فى الضحك مرة أخرى .. وقال عقب ضحكته الثانية .. أنه يعفو عنهم .. لأنهم كبار السن ، ولو كان « فتوح » وحده لما تورع عن جلده .. « فشمس الضحى » لا يجب أن تتزوج بأقل من أيها .. مكانة واسما ، وإمارة ..! وحذرهم أن يتناقل الناس أن « فتوح » تجرأ على مثل هذا الطلب ، وإلا عاقبهم بما يجب أن يعاقبهم به ..!!

وها هو ذا يسارع مهرولا .. خشية أن يكون قد امتدت يد بالأذى إلى « شمس الضحى » .. فقد نهبت قصور الممالك ، واعتدى على الكثير من ساكنيها .. حينما اقترب من القصر كان يبدو كحيوان خرافى بقرت بطنه .. كل شىء فيه مهلهلا .. حتى الأبواب مخلوعة ، والنوافذ ألقيت بعيدا بالمشربيات ، وبقايا نيران تلتهمها .. والصياح يختلط مع الغوغاء ، وزمجرة النيران ، ووقف للحظة لا يدرى ماذا يفعل .. أين « شمس » من هذا كله ؟ واخترق الجموع .. وظن بعضهم أنه يريد أن يستولى على شىء يعرف مكانه .. وظن بعضهم أنه يريد أن يتشفى .. فقد كانت القصة ملأت حوارى الحى ، وأزقته .. وأسرع إلى الحرم .. وهو لا يجد بدا من أن يصيح .. « شمس » .. « شمس » أين أنت يا « شمس » ..؟

واصطدمت به جارية عجوز بيضاء .. تجاوزت الستين .. صاحت به .. تقبل يديه أن يستريحها .. فصاح فيها أن تدله على مكان « شمس » .. فلطمت الجارية خديها وهى تقول له .. كيف يلقي الله .. إذا أخذ الفتاة الحرة البكر إلى ما يريد .. لكنه حاول أن يفهمها ، والدخان يتكاثف شيئا فشيئا ، وبدأت الانهيارات من الناحية الشرقية فى القصر ، وصرخ فيها .. أين « شمس » ؟ ، ولكن المرأة سقطت مغى عليها .. فتركها ، وجرى فى دهليز طويل .. واصطدم بثلاثة من الصعاليك يجرون ، وقد حملوا بعض

الأمّعة .. وصاح فيهم أين الحريم ..؟ أين الحريم ..؟ فأغرقوا في الضحك ، وهربوا بما كانوا يحملونه .. وصعد السلم الضيق المؤدى إلى الطابق الثانى .. كانت النار تترأى له ، وهى تلتهم الناحية الأخرى من القصر .. وألستها تعلق الطابق الذى اقتحمه .. ولم يدر إلا ويد تقبض على كتفه ، وصوت ناعم غاضب يصبح فيه .. كيف سمحت لنفسك أن تدخل الحريم .. ألا تستحى ..

واستدار فى فزع وعجلة .. كانت مفاجأة .. وهمست دون أن تدرى « فتوح » .. أما هو فقال كأنه لم يسمع همسها .. ماذا تنتظرين ..؟ هيا .. تعالى معى ..! قبل الخطر الداهم ..!

لكنها لم تتحرك .. كان على ثقة من أنها ستبعه .. إلى حد أنه قبض على معصمها .. فإذا بها تقوم بحركة .. تشل مشاعره ، وتربك خواطره .. فقد سحبت يدها من قبضته بعصية .. وهى تقول .. إنها تفضل أن تموت هنا ولا تذهب لاجئة إلى رحابه ..!!

لولا أنه تماسك لانهار .. بالفعل استند إلى الجدار الذى كان خلفه .. هربت منه الأحاسيس ، وجمد كل شئ داخله ، وخارجه .. حتى الضجيج الذى كان يصم الأذان لم يعد يسمعه .. فقط راح يحملك فيها ، وقد امتزج فى ملامحها الغضب ، والأسى ، ولعت فى عينيها كل المعانى التى تتألق فى عيون النبلاء ، وهم يقدمون على الاستشهاد .. وأدرك ما فى خواطرها .. فازداد هلعه .. فالموقف لا يحتمل .. وقال لها .. إنك بذلك تنتحرين .. فلو نجوت من الحريق .. لن تفلتى من أيدي الصعاليك ..!

قالت فى إصرار كالطفل الذى يصبر على الخطأ .. هذه حياتى ، والأعمار بيد الله .. وأوشك اليأس أن يعيده يائسا .. واستدار ليهبط الدرج .. لكنه .. رجع فى استدارته ، وهجم عليها فتضاءلت هابطة إلى الأرض تحاول أن تحمى نفسها من ذراعيه .. إلا أنه خطف ستارة من الستائر التى كانت معلقة بجانبه وألقاها عليها .. ثم مالبت أن حملها على ظهره ، وأسرع يهبط ، وألسنة النيران تجرى خلفه كأنها تطارده ..!!

وإذا بأحد الصعاليك يتصدى له ، وهو على الباب الكبير .. ويصر على أن يقاسمه ما يحمله .. وجن جنون « فتوح » ، ووضع حمله على الأرض فى رفق .. ثم اتجه إلى الصعلوك .. فانهال عليه ضربا ، وتلقى منه بعض اللكمات .. إلى أن استطاع أن يطرحه أرضا .. وعاد إلى الستارة ليحملها .. فإذا « بشمس » غادرتها .. وغابت فى الزحام ..!!

وقف واليأس يجرى فى عروقه بدلا من الدم .. ألقى نظره إلى بقايا القصر ، والنار تلتهمه شيئا فشيئا ، ولم يبق فيه إلا مالا يسمح حتى بالاختباء فيه ساعة .. واستبعد أن

تكون عادت إلى القصر .. وأحزنه أنها تكرهه إلى هذا الحد .. ماذا فعل حتى يلقي منها كل هذا ؟!!

وسار نحو حانوته .. كأنه يشيع جنازة نفسه .. ولقاءه « عزوز » عند الحانوت مبتسما .. وأذهله أن يراه « عزوز » بكل هذا الدل فيبتسم .. لكن « عزوز » أسرع يقول له .. إن « شمس » جاءت منذ لحظة ، وهى فى قاع حانوته من الداخل ، وقالت له كل شيء دار بينهما ..!!

لم يصدق .. وحاول أن يترك « عزوز » ليقفز إلى الداخل .. لكن « عزوز » قال له .. مكانك فهى طلبت حمايتى لا حمايتك .. إنها ترفضها ..!!

مرة أخرى يقف مكانه ، وتدور ساقه اليمنى على اليسرى .. كأنه يتخبط من مس من الجن أو يموت واقفا .. تمهيدا ليسقط كما تسقط الأشجار .. وجر نفسه نحو « مصطبة » حانوته ، وجلس ..!!

وفى اليوم الثانى .. نادى منادى « الفرنسيين » .. أن كل من حصل على شيء من أمتعة الممالك والأمراء عليه أن يقدمه إلى « القائمقام » فى ظرف يومين .. فإذا ضبط لديه بعد ذلك كان عقابه الموت ، وينطبق ذلك على الجوارى ، والحريم ، ومن يأويهن .. وكل من تقدم أموال زوجها أو سيدها أو والدها الأمير تنج من العقاب .. أو تشتري نفسها بألف ريال فرنساوى ..!

وأسرع « فتوح » إلى « عزوز » يطلب منه يد « شمس الضحى » حتى تصبح زوجته ، وإلا كان عليه أن يسلمها للفرنسيين .. ولما عرض عليها الأمر .. قالت إنها تفوض الشيخ « عزوز » وحىء بالشهود ، وأعلن زواج « فتوح » من « شمس الضحى » وانتقلت إلى بيته .. ولعله حينما اقتحم غرفتها ، وهى فى أتم زينتها .. لم يكن يصدق ما وقع .. فأسرع فى لهفة يحاول أن يحتضنها .. فإذا بها تفلت من يديه .. وتنظر إليه وهو فى دهشة .. ثم تقول :

. أنقذتنى المرة الأولى من الصعاليك ، وهذه المرة من الفرنسيين .. فانتظر حتى أعطيك أنا الثمن .. فالثمن لا يؤخذ عنوة .. إنه حقلك .. سوف أحلج ملابسى على مهل ..!!

وخرج يهرول فلم يبت فى البيت هذه الليلة .. !!



الحريم أيام الفماليك

حسب الفلاح

حكاية حسن الفلاح

*** الصمت تجرحه الهمسات .. يهيمن وقت الغسق على « القلعة » ، الشوارع والحوارى خلت من المارة أو كادت .. إلا من أصوات السياط تدوى فى الهواء .. وصراخ العسكر المغارية .. واستغاثات مكتومة صادرة من سبىء الحظ .. الذين قدر لهم أن يكونوا خارج دورهم . فى مثل ذلك الوقت .. وبعضهم يندفع خوفا ورعبا إلى بيوت غير بيوتهم .. تفاديا لسياط العسكر !..

فالمنادى ملأ المحروسة منذ ظهر اليوم صراخا .. يعلن أن « الباشا » قد علم أن الأمراء الهاريين المارقين فى صعيد مصر .. « مراد بك وإبراهيم بك » ورجالهم قد أنزلوا « تجريدة » من جنودهم لتندس وسط العامة ، والدهماء وتفسد بين الناس ، ولهذا فهو يأمر بأن يكون الجميع فى بيوتهم من بعد صلاة المغرب ، وألا يخرج كبير أو صغير .. إلا من ذوى الرتب والوظائف المعاونة للوالى ، ومن يقبض عليه خارج داره أو يثبت عليه أنه عاون بعض المارقين أو آواه .. فإن ذنبه على جنبه ، ويتحمل نتيجة عمله .. ولم تبق جهة فى المحروسة لم تسمع النداء من « طرة » جنوبا حتى مشارف « قليبوب » !..

واختلط الأمر على القادم الغريب .. كان يظن أنه سوف يبلغ المكان الذى يريده قبل الغروب لكن الخطر أوشك أن يحيط به .. لقد حمل « المكاتب » من « مراد بك » إلى رجل يسكن قرب « جامع قيسون » يدعى « خليل البغدادي » .. وهو يعرف أن مهمته فى قمة الخطورة ولا عقاب لها إلا الموت .. ولم يكن مرغما على قبولها ، وإنما أقدم عليها لعدة أسباب فى مقدمتها أن يدخل المحروسة التى طال شوقه إليها .. وأن يرى أمه ، وأن يتصل بالجارية « نرجس » وصيفة « نفيسة هانم المرادية » ولو استطاع أن يأخذها معه إلى الصعيد لفعل ..! فقد وعدته « الهانم » أن تزوجها له ... بعد أن تقنعها إذا اجتمع الشمل وعاد « مراد بك » شيخاً للبلد كما كان .. لكن الأيام تتوالى « والعثمانية » وعلى رأسهم « الباشا » الوالى لا يتزحزون عن المحروسة و« إسماعيل بك » يستفحل شأنه كل يوم ..!

و « إسماعيل بك » يدرك تماما .. أن فى عودة « مراد بك » هلاكه تماما ، والقضاء على نفوذه لذلك يحرص الباشا على رفض طلبات الأمراء القبلين ، وعدم الاستماع إلى خطابات طلب الصلح التى يرسلونها ، ويؤكد له أن طبيعتهم الغدر ، والخيانة ، وأنهم إذا

عادوا إلى القاهرة ، واجتمع حولهم أعوانهم فسوف يقفزون إلى « القلعة » ويحبسونه ويعلنون العصيان عليه وعلى السلطان خليفة المسلمين .. لكى يأخذوا مال مصر كله لحسابهم ، وليس ذلك فقط بل إنهم سيتعاونون أيضا مع أعداء السلطان من الكفار .. ألم يضبط المراسلات التى تؤيد ذلك ؟..

تراجع « حسن الفلاح » يحاول أن يتستر بأحد الجدران القريبة من البساتين يختفى عن عيون العسكر .. على أن يسعى إذا عم الظلام لعله يدخل المحروسة .. أو بيت فى حفرة قريبة من المقابر .. ثم يدخل فى الصباح مع القادمين من « طرة » إلى القاهرة .. إنها مغامرة لا بد منها .. فليس فى الإمكان أن يصل الليلة إلى منزل « خليل أفندى البغدادى » وانثنى يدور حول نفسه ويطلق بصره فى العتمة التى بدأت تحتاج كل ما حوله !..

تضاربت فى أعماقه عشرات المشاعر .. لكنه لم يندم ولم يفكر فى الندم .. فقد قبل المهمة وهو على يقين بالمخاطر التى سيلقاها .. لكنه يريد « نرجس » وهى تريده وسوف يدفع الثمن « لنفيسة هاتم » بما يحمله إليها من « مكاتيب » « مراد بك » وأخباره وبما يحمله إلى « خليل أفندى البغدادى » رجل « مراد بك » وأحد أتباعه المخلصين سوف يلتقى « بنرجس » التى تعيش ليا إليها على أمل واحد هو أن يتحقق حلمها وتعيش زوجة له .. زوجة « لحسن الفلاح » .. يسكنون بيتا صغيرا فى قلب المحروسة ، ويعمل فى معية « مراد بك » كما يعمل طول عمره كبيرا للباسرجية المسئولين عن سروج الخيول !

وأفرغه أن يخرج من سياحته الفكرية هذه ضجة قادمة .. مشاعل وأصوات .. والنهار لفظ أنفاسه والعتمة تمكنت من الأفق ، وأخضعت الفضاء لسلطوتها المظلمة وتبين أن جماعة من الأهالى قدموا لدفن أحد الموتى وأدرك أن الله أتاح له هذه الفرصة خصيصا لكى يستطيع أن يندس بينهم أثناء عودتهم وزحف من مكانه نحوهم .. كانوا مجموعة من الرجال والشبان .. لم يكن فيهم من يعرفه وما كاد « الترى » ينتهى من مهمته حتى اندمج فيهم مستعينا بالليل وراح يرسم على وجهه ملامح الحزن التى يجب أن يحملها من يجىء فى مثل هذه المهمة ، وفى لحظات كان يعود معهم إلى المحروسة ، وما كاد يقتحم شوارع حى « القلعة » حتى أسرع يختفى فى « الصليبية » يحاول فى تلصص أن يصل إلى جامع « قيسون » حيث منزل « خليل البغدادى » !..

طرق الباب بأصابع مرتجفة ، وفتح له أحد الخدم .. فقال له إنه يرغب فى لقاء « خليل أفندى » وسار أمامه إلى قاعة داخلية ، وجاء بسراج مشعل .. ثم غاب عنه بعض الوقت ، وأقبل بعد فترة ليعلن له أن « خليل أفندى » قادم ، واقتحم القاعة رجل مهاب عليه سمات الأتراك .. بهى الطلعة .. يبلغ الخمسين من العمر أو ينقص قليلا .. وهب « حسن » واقفا فأمسك بيده الممدودة فقبلها ، وهو يقول إنه قادم فى أمر هام على جانب عظيم من السرية .. وأشار « خليل أفندى » إلى خادمه فغادر القاعة ، وتلفت « حسن »

فلما أمن .. دفع بيده داخل ملابسه فأخرج مكتوبا من جراب جلودى دفع به إلى « خليل أفندى البغدادي » .. وفضه مقتربا من السراج فلما قرأه تهلل وجهه ، وطلب منه أن يأوى عنده الليلة ، وفي الصباح ينصرف محاذرا ألا يراه أحد من معارفه .. فيتصل « بالهائم » زوجة « مراد بك » ، وسوف يعد له رد الرسالة في موعد أقصاه ثلاثة أيام ، ومنحه كيسا من الدنانير يستعين به !!..

وانطلق « حسن » في الصباح إلى بيت « نفيسة المرادية » ودار حول البيت عدة مرات يستوثق من أنه لا يوجد أحد من « البصّاصين » حوله .. فلما اطمأن .. زحف نحو الباب ، وكان أحد « العبيد » يجلس على « دكة » مغطاة بفروة خروف .. وعرفه لكن الخادم العجوز لم ينطق إلى محدثه ، وقال له إنه أحد أبناء الحى ، وإن زوجته تضع الآن ، وهو فى حاجة إلى إعانة ، ولا بد أن يلقي « نفيسة هائم » فهي لمثل هذه الأمور دائما .. وحاول الرجل العجوز أن يقصيه لكن « حسن » تشبث ، وأصر على لقاء « الهائم » .. فطلب منه أن يدخل إلى غرفته هو حتى يستأذن له .. ونادى على غلام من « غلمان الحرم » وطلب منه أن يبلغ جارية الحرم لك أن أحد أبناء الحى يلتمس مقابلة سيدة القصر ..!

بعد محاولات كان « حسن » يمثل بين يدي « نفيسة هائم » ، وما كادت تتناول منه « المكتوب » حتى انهمكت فى قراءته .. ثم سألته عن الأمنية التي فى وسعها أن تحققها له .. فأطرق وهو يقول :

- نرجس يامولاتى الأميرة .. رد الله لك الأمير « مراد بك » ..!

- لكن كيف تمضى بها إلى الصعيد ..؟

- هى مغامرة بأميرة .. لكنها سوف تكون زوجتى أمام الله وأمام الجميع ؟

- إن « كاشف طرة » يغلق الطرق ، ويفتش جميع المراكب .. فماذا لو أخذها منك ؟

- لن يأخذ زوجة .. أنا صعيدى وزوجته عائدان إلى قريتهما ..

- هى لك يا حسن .. إذا ما وافقت هى على ذلك ..!

لم يصدق .. لولا هالة الوقار التى يقر فيها الموقف لرقص من فرحته .. وأمرت « الهائم » على الفور .. فاستعدت « نرجس » وهى فى حالة انعدام الوزن .. لا يخطر ببالها أن ما يجرى حقيقة واقعة ، وأنها بعد ساعات سوف تصبح حرة وزوجة « لحسن الفلاح » .. لقد برت الأميرة بوعدها لهما .. وبقي أمر هام بالنسبة « لحسن » .. فهو يريد أن يذهب إلى أمه فى « خط باب اللوق » ، ولو أنه شوهد فى الحى .. لذاع خبر

وصوله ، والكل يعرف أنه مع « مراد بك » ولا يخلو الأمر من عيني « بضاص » ماهر ..
يلقى القبض عليه ليحصل على مكافأة طيبة ..

وعرضت عليه « الأميرة » أن يختفى في القصر فلا يغادره حتى تجهز له « نرجس »
وتهيء له ما يعينهما على الرحلة ، فلا يخرج من القصر إلا مع « نرجس » ليسافرا إلى
الصعيد .. ولم يخف قلقه عن عيني الأميرة .. التي أدهشها أن يظل قلقا بعد كل ذلك ..
فلما سألتها عن السر طأطأ رأسه وأعلنها أنه يريد أن يرى والدته في « باب اللوق » ، وأن
ترى عروسه أيضا .. وقررت « نفيسة هاتم » أن ترسل إليها من يجيء بها .. ففي ذلك
صيانة للسر وأمان من الأخطار التي قد يتعرض لها !..

كل ذرة في كيان « حسن » فرحة ، وكلما ملأ بصره من « نرجس » تضاعف
إحساسه بالفرح .. وأفهم أمه ألا تفتح فمها بكلمة مع أحد ، وفي نهاية الأيام الثلاثة
استأذن الأميرة في الذهاب إلى منزل « خليل البغدادي » فخرج بعد صلاة العصر ،
واحتال حتى دخل على الرجل الذي أسرع يضع الرسالة في جراب من الجلد ، ودسه
« حسن » داخل ملابسه .. ثم ودعه ، وخرج يسعى نحو بيت « نفيسة هاتم » ..

وفي فجر اليوم التالي .. أحضر حمارا حمل عليه بعض ما أهدته لهما « المرادية » ،
وأركب « نرجس » فوقه وساقه أمامه .. وارتدى من الملابس ما يؤكد أنه صعيدى فى
طريقه إلى بلده ..

وقبل صلاة الظهر كان قد بلغ « طرة » ، وفكر فى أن يتفادى التفتيش بأن يضرب
فى الصحراء ، ولكن خشى أن يقع فى أيدي « الأعراب » ، وهم أشد من « كاشف
طرة » .. وقرر أن يسير فى الطريق العادى .. وأخذ جنود الكاشف إلى حيث
« الأريكة » ليسمح له بالمرور وركوب المراكب المسافرة إلى الصعيد ، وبعد أن سأل
الكاشف عدة أسئلة ، طالبه بمبلغ دفعه ، وأخذ منه الحمار فلم تعد به إليه حاجة ، وجرده
من بعض الملابس .. ثم أمر له بالسفر فى إحدى المراكب ، وحمد الله « حسن الفلاح »
على أن الأمر أوشك أن ينتهى دون خسائر تذكر !..

والتفت إليه « الكاشف » يسأله إذا كان له أهل يبيت عندهم فى « طرة » أم لا .. ؟
فأجاب بالنفى فعرض عليه أن ينزل فى بيت الضيافة حتى يأمن شر اللصوص ، وقطاع
الطرق .. ولعب الفأر فى داخله .. وأدرك أن بيت الضيافة لا يأوى سوى الرجال ، ومعنى
ذلك أن « نرجس » سوف تذهب إلى الحرم ، وفى الليل يدهمها « الكاشف » أو
زبانيته ، وتردد « حسن » فحاول أن يدعى أن أحوال زوجته يسكنون « طرة » وأنه سوف
يبحث عنهم ليقضى الليل عندهم .. لكن « الكاشف » صاح فيه .. إن ذلك يسبب
إخلالا بالأمن .. يجب أن يمضى إلى بيت الضيافة فوراً .. وإلا فإنه لن يسافر .. ولم يكن
هناك مفرأ من الطاعة !..

أسقط فى يده .. ذهباً إلى بيت الضيافة .. أحس هو أنه يساق إلى حتفه .. لمعت فى رأسه فكرة .. طلب من « نرجس » أن تدخل « حمام » بيت الضيافة ، وترتدى ملابس رجال من ملابسه .. وسوف يرتدى هو ملابس جارية .. قبل أن يقترب الليل صبح ما توقعه .. أقبلت جارية حبشية .. هى المسئولة عن حريم الضيافة فقالت له إن مكان السيدات فى الداخل .. قام معها « حسن » وهو فى ملابسه الجديدة .. وما كادت تختفى به .. حتى دفع إليها بكيس من الدنانير .. فأخفته فى ملابسها ، ودفعت به إلى جارية أخرى هى المسئولة عن « الحمام » فدفع إليها بكيس هى الأخرى ، ورجاها أن ترحمه من « الحمام » فوافقت وأخذته إلى مخدعه ..!

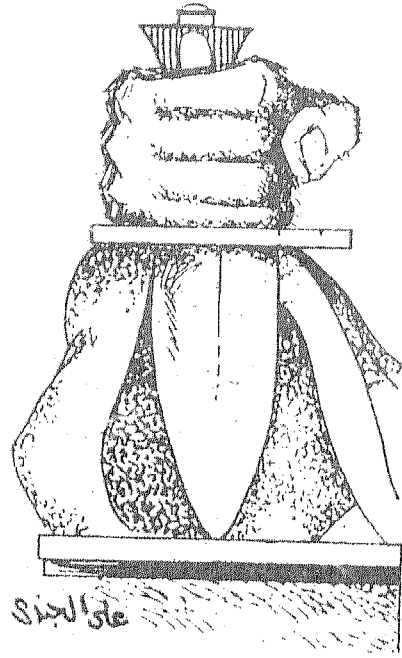
أدار بصره فى المخدع الخاص « بالكاشف » الذى يفترس فيه ضحاياه .. كان شيئاً لم يخطر له ببال .. الذى لفت نظره أكياس الدنانير الموضوعة على منصدة .. ورأى نفسه فى مرآة كبيرة بجوار السرير ، وهو فى هيئته الجديدة فكاد يضحك لولا أن فتح الباب ، ودخل « الكاشف » وهو فى حالة سيئة من السكر .. وصاح يصرف الجارية ، وأغلق الباب ، وراح يتقدم نحوه ، وهو « يرطن » بالفاظ الغزل .. ويتطوح يمينا وشمالا .. وتركه يتقدم منه حتى أصبح فى متناول يديه .. ثم فجأة مد يده فقبض على عنقه وراح يضغط بكل قوته محاذراً أن يترك له فرصة الاستغاثة .. دهش « الكاشف » حاول أن يدافع عن عنقه .. أخيراً تراخت يده .. ازرق وجهه .. جحظت عيناه .. بدأ يموت شيئاً فشيئاً .. ثقلت رأسه ، سقطت على يدي « حسن » تركه يهوى إلى الأرض جثة هامدة !

ارتدى ملابس رجال من التى وجدها فى المخدع ، وجمع أكياس الدنانير فألقاها فى داخله ، فوق الحزام ، وتسلسل متستراً بالظلام إلى بيت الضيافة فأخذ « نرجس » وقبل أن ينبلع الفجر .. كان على « الموردة » يتفق مع أحد أصحاب المراكب المسافرة إلى الصعيد .. وحتى يغريه على الإقلاع قبل أن تطلع الشمس .. أعطاه كيسين من الدنانير ..!

بعد أيام .. كانت المراكب قد وصلت إلى « بنى سويف » حيث معسكر « مراد بك » .. كان « حسن الفلاح » يروى القصة له ، وهو يضحك ، ويضرب الأرض بقدميه .. ثم أمر له بمائة كيس ، وأصر على أن يقيم لهما الفرح .. فقد كان سعيداً بالرسائل التى جاءه بها « حسن الفلاح » من رجله « خليل البغدادي » ومن زوجته « نفيسة المرادية » .. وبعد أيام وصل خبر قتل « كاشف » طرة قالت الإشاعات أن جارية من جواريه خنقته وهربت تحت جناح الظلام !!..

☆☆☆

الحرم أيام المماليك



الخيمة والخنجر

الخبز والخنجر

* * * المسافة بين جامع قلاوون وحارة بيرجوان مزدحمة بالناس .. لا سبيل إلى السير فيها .. والناس قاماتهم طويلة .. تلتف حول بعضها كأشجار غابة قوية .. أقدامهم تغوص في الأرض .. الكل يختلطون .. يتصايحون .. المشاعل التي تضيء وجه الظلمة كثيرة لا تكاد تحصى ..

بعضها معلق على الجدران وبعضها يحمله الرجال ومشاعل فوق بغال .. تحمل الكثير من عتاد الحرب .. وعجلات تجرها الرجال وأخرى تجرها الخيول .. وخلق بلا عدد .. فوق مصاطب الحوانيت .. يدخنون النرجيلة .. يأكلون .. يتكلمون .. يصرخون .. يفحصون أسلحة .. أمامهم ذخيرة .. خناجر .. سيوف !!..

لم يفرح حسن فقد اعتاد غلمان القاهرة مثل هذا منذ احتلال الفرنسيات للقاهرة .. لكن الدهشة ركبت .. لأن الذي يجري الليلة .. كان شيئا غير مألوف .. لاسيما والفرنساوية كثيرا ما كانوا يحبسون الناس في بيوتهم من غروب الشمس .. حتى شروق الفجر !!..

وفي غمار الدهشة .. يتحسس الدراهم في جيبه .. تلك التي أعطتها له والدته .. لكي يشتري بها زيتا من خليل الزيات الذي يقع حانوته .. في أول فم فتحة بيت القاضي وخلف خان الخليلي .. فقد بحث عن طعام تعده لأطفالها يصلح عشاء لكنها لم تجد سوى حفنة من الدقيق .. قررت أن تصنع منها مع بعض الزيت ما يشبه العشاء تحتال به على الأطفال وتنام وإياهم حتى الصباح لكنها فوجئت بأن قدر الزيت فارغ .. ورغم خطورة المغامرة .. إلا أنها لم تجد مقرا من أن ترسله لكي يعود لها بكمية من الزيت .. ولولا خوفه من غضب والدته وعقابها الذي كثيرا ما تصحبه بالتهديد .. بالشكوى إلى والده .. الذي كثيرا ما يعلن عن تأييدها عمليا .. فيضيف إلى ركلاتها القديمة بعض اللكمات والنبابت .. وهكذا يعاقب مرتين على ذنب واحد .. وحتى يتفادى كل ذلك .. حمل القدر الفارغ تحت إبطه والدراهم في جيبه وخرج .. فإذا بالدنيا غير الدنيا والليلة من ملامحها لا تبشر بنهاية طيبة !!..

حاول في رغبة صادقة .. أن يعبر الطريق .. لكي يكون على مقربة من فتحة بيت القاضي .. تردد .. ثم هم فألقي بنفسه .. لكنه لمح كوكبة من عساكر الإنكشارية .. مقبلة في فوضى سريعة .. تسوق أمامها بعض الخيول .. تسبقهم طائفة من المناادين

الحفاة .. الذين يمرقون بأسواطهم على الجانبين .. يوسعون لهم الطريق ولا يعينهم .. إذا خلع طرف سوط أحدهم عين مواطن أو مملوك من الذين تزدحم بهم الطريق .. تحسس القدر الفارغ من جديد وتراجع حتى التصق بالجدار .. لكن جسد الشيخ سبقه إلى الجدار وأيقن أن الوصول إلى حانوت خليل الزيات لن يحدث وإذا حدث فلن يكون بلا خسائر إن لم تكن في الأرواح .. فهي لا بد في الأموال .. ودون أن يدري تأكد من وجود الدراهم في جيبه ..

وعاد ينظر من جديد إلى الطريق .. وكما يلقي الإنسان بنفسه في النيل .. ألقى حسن بنفسه في نهر الشارع وراح يحاول الوصول مخترقا الجموع التي كانت متراسة .. لا تكاد تفرق بين الذهاب أو العائد .. وعلى الجانب الآخر لاح له مصطبة حانوت العطار .. لكنها احتجبت وراء الأجساد وأحس كأنه يدور بين حجرى طاحون من البشر وأخيرا وجد نفسه على الجانب الآخر .. والقدر تحت إبطه لم يصب بسوء .. والدراهم تستقر في جيبه .. لكن المفاجأة كادت تصيبه بالشلل فقد وجد نصف جلبابه منزوعا تماما فقد نصف جلبابه في الازدحام .. الحقيقة أن الجلباب كان قديما لكنه لم يكن يتوقع أن يتخلى عنه بهذه السهولة .. وهى لم تكن سهولة فقد انهرس بين القوم ودار يميننا وشمالا .. لكن وعيه كان مركزا في الحفاظ على القدر .. لذلك ضاع نصف ثوبه وضاع الجيب وضاعت منه الدراهم ولو حاول أن يصل إليه فقد يفقد نفسه دون جدوى .. وراح ينظر في لوعة إلى وجوه الناس .. لكن أحدا لم ينتبه إليه ..!

لم يستطع أن يحدد ماذا عليه أن يفعل .. المستقبل مع والدته غامض تكتنفه المخاوف كأنه يركب في زورق يغرق .. كل ظروفه تضعه الآن على أول مأساة رائعة .. وأخرجه من كارثته بعض الجنود .. يرفعون من فوق خيولهم .. مزارفين على كل منهما رأس .. أحدهما لشيخ له لحية سوداء والآخر حليق .. ومنذ النظرة الأولى خبا وجهه بيديه وذهل عن القدر فسقط ليتحطم .. وأفزعه ذلك وأخذ المنظر .. فاستند على جدار حانوت « العطار » ورغم كل ما هو فيه .. إلا أن والدته وإخوته والعشاء الذى لن يحدث .. طاف بذهنه .. وغلبته دموعه يبكى مقدما لعلمه بما سيحدث له الليلة ..!!

حاول أن يعود .. لكنه فشل .. دفعه تيار الأجساد المتدافعة إلى نحو فتحة بيت القاضى ربما حاول أن يعود .. ووجد نفسه على مقربة من حانوت خليل الزيات خلف خان الخليلى وأحس بالكرب الشديد فقد كان الحانوت مغلقا وعجب لماذايذاهمه هذا الشعور وهو لن يستفيد منه .. حتى لو كان مفتوحا .. وأسقط في يده وأدرك عن يقين أن عودته من الشارع مستحيلة .. فقرر أن يخترق الحارات التي خلف جامع قلاوون إلى الخرنفش ثم يعود إلى بيرجوان من هناك .. وظل يتربص إلى أن عبر الطريق .. واندس في

الحارة الطويلة .. كانت صامتة كالعهد بها .. لكن بين الحين والحين .. يوجد مشعل على قمة بوابة من البوابات .. كما تقضى تعاليم « الفرنساوية » وبعض المارة يهرولون .. كلهم يرتعدون .. يتوقعون أن يقبض عليهم .. الخوف سيد هذه الليلة والذعر هو الذى يحكم الجميع !..

فقد تهيأ الكل للحرب ضد الفرنسيين .. معظم الأمراء المصريين ذهبوا مع نصوح باشا والعساكر العثمانية تابعوه إلى الألبانية لمحاصرة بقايا معسكرات الفرنساوية رابط عثمان ككتخدا فى الجمالية .. فى بيت قائد أغا .. وجمع الغندقلية والحدادين والعربية وانهمكوا فى إعادة وإصلاح المدافع وصناعة القنابل وتعبئة الذخيرة ولم يستقر رجل فى بيته إلا إذا كان مريضاً أو تعجزه عن القتال علة ظاهرة !..

وانتشر أولاد القرافة والعامية وشبان الحسينية والعطوف فى خط باب النصر وعسكر عند باب البرقى إنكشارية باب الحديد .. وانضم إلى الجنود كل الأهالى فى شبه مقاومة شعبية .. تتجمع وتقف خلف المتاريس . لتصيد الفرنساوية إذا عادوا من بليس وكانوا قد خرجوا مع كبيرهم « كليبر » ولم يتركوا فى القاهرة .. إلا بعض معسكرات قليلة .. فى بيت الألفى والألبانية والقلعة واعتبر عثمان ككتخدا هذا المصنع هو مصدر الذخيرة للقاهرة كلها .. والناس يقفون على النواصى .. حى على الفلاح .. حى على قتال الفرنساوية وكل مندوب يصل من الأحياء لانتلام ذخيرة يلقاه الكتخدا بوجه بشوش وصدر رحب .. يجزل له العطاء ويحمله ما شاء من البارود والسلاح ..

وانتهز فرصة الاضطراب رجل مغربى يدعى « الشيخ الجبلاتى » يقود جماعة من المغاربة ومن المسلحين الوافدين وراح يطوف بجماعته وهم جميعاً من المسلحين وحصلوا من الكتخدا على أسلحة جديدة وأشاع أنه كان يقاتل الفرنساوية فى البحيرة وأنهم يطالبون برأسه .. إلا أنه كان كثيراً ما ينهب ويسلب بعض المحلات مع رجاله بحجة أنهم يتعاونون مع الفرنسيين كما قتل الكثير من أبناء البلد بهذه الحجة .. ثم هجمت طائفة من العسكر العثمانية على بيت « الشيخ البكرى » ومعهم بعض العامة والدهماء .. فنهبوا داره وأخرجوه مع أولاده وحرّمه وأحضره إلى الجمالية عارى الرأس حافى الأقدام وأهين إهانات بالغة فلما جىء به إلى عثمان ككتخدا هاله ذلك الأمر وصرف الناس عنه وطيب خاطره وأرسله إلى بيت محمود محرم التاجر مع حرّمه وأعيدت إليه كرامته وهيبته !..

لكن كل هذا الذى يجرى لم يكن يعنى حسن منه شيئاً .. الذى يعنيه الآن هو كيف يلقى أمه .. وماذا يقول لها وقد ضاعت منه الدراهم وذهب القدر ولم يعد بالزيت !..

وبينما ينحدر من الحرنفش إلى بيرجوان .. عثرت قدمه فى الظلام .. داس على جلد ناعم .. به بعض الحديد .. مد يديه فى الظلام .. كان الجلد حزاماً .. رفعه بيده .. كان

ثقيلا بعض الشيء أحاطه بيديه أدرك أنه جراب خنجر من المطعم بالفضة .. وتلفت حسن رغم وثوقه من أن أحدا لا يراه .. لكنها المعاناة .. ودس الحزام والخنجر تحت البقية الباقية من ملابسه .. واعتقد أن الله عوضه عن الدراهم التي فقدت منه .. وكاد يرقص من النمرحة والجمال يلامس جسمه وهو يقفز إلى بيتهم في حارة بيرجوان واندفع يهرول .. فكر أن يجرى :: لكن خشى أن يلفت الجرى نظر الناس إليه كما أنه لا يأمن أن يسقط الخنجر والحزام منه .. فاكتمى بأن أسرع . حتى دلف إلى منزلهم !!

فوجئت أمه بما حدث في جليابه .. فصاحت فيه . لكنه أسرع .. يخرج الحزام والخنجر من تحت ملابسه وبهرتها الزخرفة الفضية في المقبض والحزام ومكنت قبضتها منه فانتزعت الخنجر الذي كان لامعا لا يستعمل إلا في الزينة .. وانتهز « حسن » لحظة إعجابها .. فقال لها في سرعة ما حدث للدراهم ، « وللقدر » .. وعادت المرأة تجلس ، وقد أصيبت بخيبة أمل ضخمة .. تجاوزت فرحتها بالكنز الذي عثر عليه « حسن » فتركت الخنجر فوق جرابه وكلاهما يلمع تحت ضوء المشعل .. وجرى الألم يرسم نفسه على ملامحها .. وأحس « حسن » فتضاءل ، وكمن في مكانه .. لا يقوى على النظر في عيني أمه .. أخيرا قال لها في رجاء .

أمي .. أمي .. لا يقل ثمن الخنجر والحزام عن خمسين دينارا ؟..

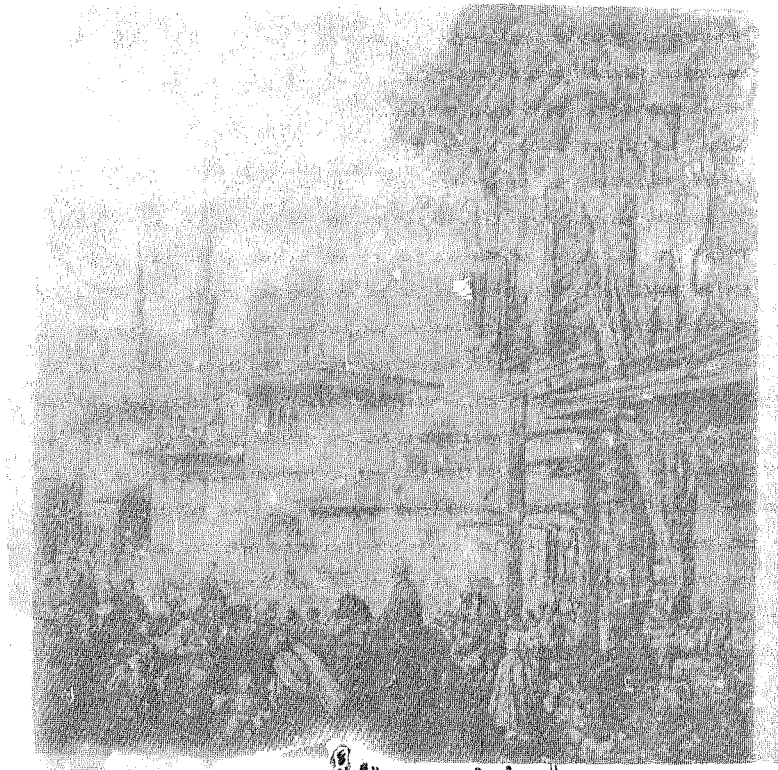
قالت وهي ترمق الخنجر :

اذهب فضعه على الدقيق ، وقدمه لإخوتك في العشاء ..!!

ونظر « حسن » إلى أمه .. ثم صمت !!..



الحريم أيام المماليك



الهاوير الأخير

الطابور الأخير

* * * فى الحلق مرارة هى العلقم .. والقلب ينوء .. يتألم .. تذرحه شرارات
شرسة .. تجتاحه شرهة .. مفترسة .. تخنق بالقهر أمسياته .. تطعن بالغدر لياليه ..
يرنو إلى « القلعة » بعينيه .. و « القاهرة » لا تروى إليه .. حرماها المحتال عليه ..
فالخصم هنا لاعب ماهر .. شديد المراس .. مقامر .. مغامر .. استخلصها لنفسه دون
الآخرين .. وهو يتظاهر بأنه يصلح بين المتخاصمين !!..

من الممكن أن يشعر بما يحسه الآن ..! هذه الآلاف من الجنود ، والأمراء .. تحيط
بجوكبه ، ويبدو كأنه يختال مزهوا .. و « محمد على » يرقبه من البر الشرقى .. يحسده
على تلك الطلعة الجليلة .. طبول تسبق ركبه ، وهو يسير بين صفين من الخيال ، ومن
خلفه قبائل « أولاد على » على جمالهم ، ومئات المماليك بالملابس المزركشة سيوفهم
مدلاة على جنوبهم ، ورجال لا يحصيتهم العدد .. على أكتافهم بنادقهم .. وهو يسير
وسط الموكب .. يقلد (بونا برته) عندما دخل « القاهرة » .. لكنه يسير على البر الغربى
من « إمبابة » إلى « الجزيرة » قادما من الدلتا بعد أن أقام فى « دمنهور » ثلاثة أشهر ..!
لم يحدث أن سار أحد الأمراء فى مثل هذا « الطابور » فلم يكن هذا النظام معروفا قبل
« الفرنسيين » ، ووقف « محمد على » يرقبه من البر الشرقى .. وهو يقول لمن معه
وحوله :

هذا « طهماز » الزمان وإلا إيش يكون ..؟

وما توقعه المماكر حدث .. فقد حاول أن يحرض الجنود « الأرنؤوط » على أن
يعبروا ، ويتصدوا لمسيرة « الألفى بك » لكن قلوبهم انخلعت وخارت من الخوف
قواهم ، فما تحرك منهم رجل .. واكتفوا بالنظر ، ومضى « الألفى » مخترقا « الجزيرة »
حتى وصل إلى قنطرة « شبرامنت » .. هناك اختار ربوة عالية .. وأمر أن يحط
الرجال !!..

كان الشيخ مقهور الأحلام .. ممزق الوجدان .. فقد مع الأحلام التى يريدتها ..
القدرة على صنع أحلام جديدة .. وكانت الشمس تميل إلى المغيب ، وامتد الغروب إلى
أعماقه .. وتحركت قبضة قوية تخلع القلب الذى يتنفس به من مكانه .. فى أول الأمر
تصور أن ذلك وهم .. لكنه حينما حاول أن يهبط من على حصانه .. أدرك أن داخله
يتهدم ..!

وأسرع الجنود يهيئون الخيام .. وأحس الأمراء ، « والخدامشون » أن الأمير فى أزمة .. فاجتمعوا حوله .. لكن الطائر كان يقاوم ، والشمس تعانق قمم الأهرام ، والظلال تزحف فى إصرار .. لا تبالى أن تغطى خميطة ورد .. أو مستنقع ماء ..!

ومال على « شاهين بك » تلميذه ، وآخر المخلصين .. همس فى أذنه أن يستدعى طبيب الحملة .. وانطلق أحد الجنود ليعود بالطبيب ، وتفرق باقى الأمراء ، فالأمر ليس أكثر من « وعكة » .. وعلى النخلة التى ضربت خيمة الأمير تحتها .. كانت جماعة من « الغربان » تتقاتل .. وصرخت تنعق ، وسقط غراب من حلق .. ثم حاول أن يطير أو يحاول التحليق .. لكن قدراته خائته .. فصاح ينعق فى يأس ، ثم استسلم .. كان « الألفى بك » يرمق الغراب الذى يعطى نفسه للموت ، وهو يقاوم الآلام المدمرة التى تدك صدره .. لكنه لا يطوف بذهنه أن يتأوه أو يتكلم ..!

تفرق « شاهين بك » إلى الكلام .. لكنه احترم صمت الأمير ، والمعاناة الصامتة التى تنعكس آثارها على جبهته ، وبريق نظراته الذى بدأ يخبو .. ولونه الذى انحدر من الأحمر إلى الزرقة كأنه يختنق .. قال الأمير فجأة ..

- أريد أن أستريح ..!

ولم ينتظر ردا .. بل اضطجع على السرير الذى نصب له داخل الخيمة ، وهمهم « شاهين » بكلام ، كان على يقين من أن الأمير لم يسمعه .. فقد كانت اللحظة مشحونة بالآلام تنوء بها الكرة الأرضية ..!

وأعاد « شاهين » حديثه واضحا لعل الأمير يجيبه فقال :

- ماذا بك يا أستاذ ؟..

قالها كأنه يقدم على مغامرة .. وانغرس السؤال فى قلب الأمير .. لكن لم يجد الخيط الذى يبدأ منه .. فإن ما به لا يقال ، ولا تتسع له الكلمات .. هزيمة .. ضياع .. غدر .. خيبة أمل .. على كل الجبهات .. الإنجليز خذلوه ، ولم يرسلوا إليه المدد الذى انتظره ثلاثة أشهر فى « دمنهور » ، والأمراء الذين تحصنوا بالوجه القبلى .. « إبراهيم بك » وجماعته والمرادية ، وكبيرهم « عثمان بك البرديسى » رفضوا عرضه .. رفضوا أن يضعوا أيديهم فى يده الممدودة إليهم ليزحزحوا « محمد على » من مشيخة البلد .. قالوها صريحة .. إنهم لا يأمنون على أنفسهم منه .. ولم يكن « محمد على » ينحنى أكثر من ذلك .. ومن أجل ذلك لم يستطع أن يعبر النيل إلى الشرق ، وأعلن أنه سوف يمضى إلى « الفيوم » حيث يبقى مع رجاله ، وماليكه ، و « خدأشينه » .. يسيط سلطاناه على الإقليم إلى أن تنكشف الأمور ..!

هو الآن فى المنفى ..! هو الآن بعيد .. فى جزيرة من الكراهية ، وعدم الأمن ، وفقدان الثقة والحيانة .. أبناء جنسه المماليك « المصريون » يرفضونه ، و « محمد على » يتربص به ، والمرضى المفاجيء العنيف الذى يذب الآن ، وبقرة فى أعماقه .. ممزوجا بالقهر ، مخلوطا بالإحباط .. يرغبه على الضعف .. يخشى أن يصيبه الشلل .. فيلقى أسوأ نهاية .. حتى على أيدى أقرب الناس إليه ..! يخشى ألا يجد بقية من العمر ساعات يصل فيها إلى « الفيوم » حيث تنتظره .. المرأة الوحيدة التى أحبها من بين زوجاته ، وجواريه .. « عزيزة الإسماعيلية » ..!

قبل أن يتحرك الركب من « وردان » أرسل هجانا على هجين ليبلغها فى « الفيوم » أن « الألفى بك » فى الطريق .. لم تكن « عزيزة » مجرد زوجة .. بل حبيبة وعاشقة ، وخطيلة للرجل الذى كان يصنع الأمراء .. كانت من جوارى « إسماعيل بك » اشتهرت بجمال الصوت ، والعزف على العود .. فلما استمع إليها فى حفل كان يقيمه « إسماعيل بك » لزواج ابنته .. أعجب بها .. فأهداها إليه سيدها .. فأعتقها « الألفى » وتزوجها .. لم تحفظ له الجميل فقط ، وإنما ترجمت ذلك إلى حب ، وحنان ، ورعاية .. نفذت بها إلى أغوار الرجل الوحيد ، الذى يقف وحده فى صحراء الحياة .. رغم كل ما يعوم فيه من ثراء .. « فالألفى » كان لا ينسى أنه أحد المماليك .. مخطوف مباع بلا جذور . فإذا ما جلست إليه استغنى بها عن الدنيا .. أعطته ما يجعله يشعر أنه من الدنيا ، والدنيا أسرته ، وأنه عميق الجذور ، وجذوره تبدأ به .. بينما جذور كل الناس تنتهى بهم .. هكذا قالت له . حينما شكى إليها فى لحظة ضعف .. فصاغت هذا المعنى شعرا وغنته له .. فقام يعانقها ويكى كطفل .. فإذا ما حبس نفسه يوما كاملا بعيدا عن متاعب الحكم ، والمحكومين .. وكثيرا ما كان يفعلها .. ناداها « ماما » ، وكان الرجل الذى يحبس الرجال أنفاسهم فى حضوره .. يسعده أن يغزو النوم عينيه ، وهو يستلقى على صدرها ..! تغنى له حتى ينام كطفل لم يبلغ الفطام بعد ..!

ضج الصمت بالصخب ، وخشى « شاهين بك » أن يكون صمت الأمير جزءاً من غضبه عليه .. فأعاد سؤاله فى نبرة رجاء :

- سلمك الله يا أستاذ .. ماذا بك ..؟

لكن الأمير الذى يتهدم كبر قديم من الداخل لم يجب بل سأله :

- شاهين ..!

- أفندم .. أبقى الله أميرنا وأستاذنا ..

- هل جاء الطبيب ؟

- سوف يصل حالا يا أمير .. أوامركم أدام الله عزكم ..

- أرسل إلى « الفيوم » الآن ، واحمل إلينا زوجتنا « عزيزة هانم أفندى » ..

- سمعا وطاعة

وقف « شاهين بك » ، وهو على يقين من أن شيئا هاما سوف يحدث خلال الساعات القادمة .. خرج من الخيمة .. فكلّف كبير الحرس بأن ينفذ الأمر الخاص بالطبيب ، والخاص بمن يعود من « الفيوم » بالأميرة « عزيزة الإسماعيلية » .. وحينما كان يعود إلى حيث الأمير .. استمع إليه ، وهو يغالب ، وينازع القىء ، ويخيط من الدماء يسيل من فمه .. وأسرع يحتضنه ، وكان الطبيب يقتحم الخيمة !!..

أخرج الطبيب بعض الأعشاب من جرابه ، وغلاها .. ثم أصر على أن يقوم بفصد جبهة الأمير لإخراج الدم الفاسد .. فقد ابتلع الأمير غضبه المر فسمم جسده .. هكذا كان تشخيص الطبيب .. ولكن القىء هاجم الأمير مرة أخرى ، وكانت قطع حمراء من الدم .. كأنما كبد الأمير فتته القهر !!..

ودخل بعدها فى غيبوبة .. فلما أفاق منها .. همس ، وعيناه شبه مغمضتين .. شاهين .. هل أحد معنا هنا ؟.. قال له الطبيب : أنا وأنت فقط يا أمير .. فاستمر يهمس .. سوف أموت فلا تدفني إلا فى « البهنسا » ، وأدخل على الآن كبار قادة الجند ، وأساتذة المالِك ، لكى أوصى لك بقيادة جماعتنا ، والأستاذية .. وأن تكون لك الطاعة دون سواك !!..

وأرتج على « شاهين » .. فبكى .. ولكن الطبيب قال أسرع « يا شاهين بك » فالوقت قد حان ، والله يعوضنا خيرا فى أميرنا !!..

وحمل « النعش » على هجين ، وسار الموكب الحزين يقطع الطريق إلى « البهنسا » .. وذعرت « عزيزة هانم أفندى » من الرسول الأخير ، وخرجت مع القافلة ، وعلى الطريق شهدت المشهد الرهيب .. كان الأمير على جمل مجلل بالسواد ، وحوله خيالة يدقون على طبولهم الدقات الحزينة ، وأعلام سود على ظهور وسروج الخيول .. وتوقفت .. لم تجد كلمة على لسانها ، ولم تجد فى عينيها دمعة تذرفها .. ظلت شاخصة .. فلما انتهى الطابور سارت بقافلتها فى آخره !!..

فهرس

صفحة

- الإهداء ٣
- من فضلك ٥
- الفزالة ٩
- ممنوع الحزن ١٧
- امرأة من الحسينية ٢٥
- وحوش بلا قيود ٣١
- الزمردة ٤١
- هارب من الحرم ٤٩
- الشفق الأسود ٥٩
- ليالى الشوق ٦٧
- الحب .. و .. الملوك ٧٧
- الفارس والحصان ٨٥
- الظلال ٩١
- أيام خرساء ٩٩
- الحب له أجنحة ١٠٧
- قوت القلوب ١١٥

- الهوى والأغا ١٢١
- الجـراح ١٢٩
- على باب القلعة ١٣٥
- الشمس دائما عالية ١٤٣
- حكاية حسن الفلاح ١٥١
- الخبز والخنجر ١٥٩
- الطابور الأخير ١٦٥



كتب صدرت للمؤلف

- * الجلسة سرية . الدار القومية .
- * الجنس والجريمة - قاتل اسمه اللذة . دار الهلال .
- * الجريمة فى الرواية العربية - الجميلات يذهبن إلى المحكمة . دار الهلال .
- * رواية « نساء من باب الشعرية » . دار الهلال .
- * دماء على عقد عمل . دار التراث .
- * قلوب فى المحكمة . دار التراث .
- * غير صالح للزواج . أخبار اليوم .
- * دع القلق ابدء الزواج . أخبار اليوم .
- * رجال من مكة . دار الشعب .
- * كنت قبوريا . دار الإفتاء بالسعودية .
- * الزواج فى قفص الإتهام . بيروت .

تحت الطبع

- * الحب عند رسول الله ... السيرة النبوية من منظور الحب .
- * شخصيات من الطبقات [كرام من طبقات الصحابة لم تسلط عليهم الأضواء] .
- * وداعا سى السيد .. جرائم نسوة قتلن أزواجهن .
- * الراقصة والحزب ... رواية نشرت فى مجلة الكواكب .
- * القبوريون يتساقطون .
- * أيام المقاومة الفلسطينية .

رقم الايداع بدار الكتب :	٣٠٦٥ / ١٩٩٩ م
الترقيم الدولي :	I.S.B.N .977-202-146-3

مؤسسة دار الشعب



هذا الكتاب

هذه المساحة تعودنا أن تخصص لتقديم المؤلف إلى القارئ. إلا أنه يغلبني التواضع. والاستحياء أن أفعلاها مع القارئ. فهو أذكى من أن أقدم له «عبد المنعم الجداوى» الذى يقرأ له فى الصحف العربية عامة. والصحف المصرية خاصة منذ نصف قرن..

فكاتبنا أنشأ فى الصحافة العربية مدرسة لكتابة أدب الجريمة، قوامها التحليل النفسى، ودراسة الدوافع، والبواعث عند الجانى، وعكف على دراسة الجريمة فى أدب «نجيب محفوظ» ومازال كتابه «الجريمة فى الرواية العربية» من أوسع الكتب التى أصدرتها «دار الهلال» توزيعا..

تتلمذ على كتاباته للجريمة عشرات من الصحفيين الشبان فى مصر والبلاد العربية. يسيرون على نهجه، ويتبارون فى كتابة الجريمة بأسلوب أدبى لا يفضّل ظروف المتهم الاجتماعية والنفسية.

أصدر أكثر من عشرين كتابا معظمها يدور حول الجريمة، ومن دوائر الأحوال الشخصية المتعلقة بالزواج والطلاق، ومن هذه الكتب: «النساء يقتلن هكذا»، و«الجماليات يذهبن إلى المحكمة»، وآخر كتبه «دع القلق، وابدأ الزواج»، أصدرته «أخبار اليوم» وأصدرت له «دار الشعب» فى السبعينيات كتاب «رجال من مكة» وهو عن بعض الصحابة الذين عاشوا، وماتوا فى الظل.

دار الشعب

To: www.al-mostafa.com